يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

أحمد جاد الكريم

أحزان نوح

الرواية الحاصلة على جائزة

المجلس الأعلى للثقافة

الكتـــــــــاب: أحزان نوح

المـــؤلـــــف: أحمد جاد الكريم

تصميم الغـــلاف: محمد حوَّاس

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 2015 / 1966

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 072 - 7

الإخـراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 97 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0223952354 - موبايل: 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

جديد بدف®
jadidpdf.com

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

أحمد جاد الكريم

أحزان نوح

الرواية الحاصلة على جائزة
المجلس الأعلى للثقافة

جديد بدف
jadidpdf.com

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

إهداء

إلى حبيبتي

ولاء

آخر من سكن القلب وأغلقه.

جديد بدف®
jadidpdf.com

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

مقدمة لابد منها

في بَدء الخليقة كان الإنسانُ تواقًا للمعرفة، مُحبًا للعلم، وخلال رحلته الطويلة بحثًا عنهما، أهداه حكيمٌ قبسًا من نار إلهية، وشق له طريقًا من نور، وهداه بعصاه إلى رحلته التي سينتهي منها إما ظافرًا أو ناكصًا.

كان على الحكيم أن يُخبره بأن الطريقَ محفوفٌ بالشوك، وسيرسل له الإله الغاضب من مقاسمة بشري له الحكمة والمعرفة عذابًا من نوعٍ خاصٍ وفريدٍ؛ وإذا كانت المعرفة مقتبسة من جذوة من نار مقدسة كان العقاب والشرك الذي نُصبَ نارًا أيضًا، نارًا من لحم ودم، هي نارُ الحُب متمثلةً في الأنثى، وبها تعذب الإنسان، وعليها عاش حياته يعاني دون أن يعرف أن ثمن المعرفة التي تلاقاها في البَدء هي تلك النارُ التي تأكل دائمًا أحشاءه.

كان على "نوح" بطل حكايتنا أن يقبس شيئًا من تلك النار، كان عليه أن يحترق بالمعرفة، التي جاءته على غير طواعية منه، ورث الحِمل، وشقي به، ومنه جاءت أحزانه.

***

https://jadidpdf.com

في ليلة كان "نوح" يقرأ كعادته في حجرته ذات الإضاءة الشحيحة، غرسَ سنَّ قلمه في بضع ورقات وبدأ في كتابة بعض الملحوظات، كان يقرأ في مخطوطٍ قديم يحكي عن أسطورة "بروميثيوس" الذي بلغ به حُبه للبشر أن سرق قبسًا من نار المعرفة من الإله "زيوس" ليهديه للبشر، غير عابئ بغضب "زيوس" كبير الإلهة، كانت كلما مسَّت تلك القبسات بشريًا تجلَّت عليه معرفة ما، فتعلم حرفة أو مهنة أو معرفة ما، فوُهِبَ البشرُ حرفًا كثيرة وامتدَّت المعرفةُ إلى علوم الفلك لمعرفة الأزمان والنجوم وكان من نصيب رجل عجوز أن يصير كاتبًا، فامتهن الكتابة، واستشعر بضرورة رد الجميل لـ "بروميثيوس" فبدأ بكتابة مأساة هذا الإله المُحب للبشر الذي تلقَّى " العقاب من "زيوس" معلقًا على جبل القوقاز عاريًا، يأكل النسر من كبده و حتى يدوم عقابُه أبدًا كان يُخلق له كبدٌ جديد كلما فني القديم، واستمر العذاب بلا نهاية.

غير أن النارَ المُقدسة التي منحها "بروميثيوس" للبشر هي التي فجَّرت الإبداع لديهم، وكانت شديدةَ الأثر على ذلك العجوز، فكان يكتب على ضوء تلك النار المُقدسة حتى نضجت كتابته وصارت مقدسة مثلها، كان "نوح" يتلو السطور تلو السطور تلاوة تليق بعظمة ما هو مكتوب، ونسي أثناء انغماسه في القراءة نصيحة مُعلِّمه ألا يترك نفسه لعنان ما يقرأ، حتى لا ينجرف ويعيش في زمن النَّصّ، وفي تلك الغفلة تلبست تلك النار المقدسة روح "نوح" حتى أحسَّ بحرارتها في حجرته، وسطع

https://jadidpdf.com

ضوؤها فأنارها، صدع صوته وعلا أكثر فأكثر، وتقمص دور العجوز ليكتب حكاياته الحزينة.

وكانتْ نارُ نوحٍ نارَ معرفةٍ مُحرقةٍ، ونارَ عشقٍ لمْ يكتملْ.

https://jadidpdf.com

لو غابتْ عنك النارُ ستهلك، السرُّ كلُّه في النار.

الرَّاوي

https://jadidpdf.com

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذْ عَوَى

وَصَوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

الأُحيمر السعدي

https://jadidpdf.com

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

https://jadidpdf.com

عَوْدَةٌ

كانت عيون "نوح" كمن طار وراءها النعاس لسنوات ولم يدركها، لكنَّ الأرقَ أخذها في حضنه وهدهدها، الجملُ يقطع الطريق و"نوح" يُقلِّب بصره في تلال الرمال التي كانت تظهر فجأة فتغير طريق سيره، يستظل بين تلَّين عاليين، يخلد للراحة قليلا قبل مواصلة السير عبر الطريق الذي منه جاء.

الشمس التي كان يبتهل لأشعتها، صارت الآن عذابًا يود الخلاص منه، من فوق الجمل يرى أنه أعلى من الكون، يلتمع وجهه، يسري الدفء إلى عروقه فيحس بالراحة والسكينة، يتخدر الألم ويصمت، وهو يغمض عينيه مسترجعًا أيامه القليلة التي قضاها في منفاه، وسيستمر يراود حلمه العجيب ليُحققه؛ تجربة اختارها بنفسه ولم تُفرض عليه، تُلقي الشمس أشعة أكثر دفئا فيسترخي على ظهر الجمل، يتنفس ببطء والجمل يهدهده كسرير متأرجح يتماوج به، هدأت الآلام التي عاودته بالأمس، الحُمَّى تخفت كلما تقدم نحو القرية مبتعدًا عن الصحراء.

ارتخت عيناه لتستقر على الصخور التي ترمح كأنها تسابق الجمل

https://jadidpdf.com

الذي شدَّ حيله للوصول قبله، وقتها تذكرها وتذكر "عزيز" والأيام التي عاشاها، حلمه الذي تهاوى تحت معاول الحب ثم جاء الوسواس الذي صاحبه فهدمَ كيانه وحوَّله لنثارات دقيقة، حاول طيلة أيام المنفى أن يُلِمَّ ما تناثر من نفسه الممزقة، رسم طريقًا وسار فيه، وسط عالم الصحراء الخالية من البشر، المسكونة بالصمت والوحدة والتفكير، انتعل الرمال الساخنة وهناك تمرغ في تراب الأرض، كان يريد أن يحتويه هذا التراب بعد أن غادر حضن أبيه الذي فرَّ منه.

فأيهما كان أرحم؟!

وعادتْ عيناه لتستقر على الطريق الذي كان يجري أيضًا، كل شيء يجري، كل ما في الكون يسابقه كأنه في صراع معه، هو مسالمٌ لدرجة أنه يسخر من هؤلاء المهرولين، وسكبت عيناه نظرة أخيرة قبل أن يغفو في سُباتٍ لم يشعر أثناءه بتموجات الجمل الراكض بخفة، سعيدًا كلما حان القرب من العَمَار.

كدمعٍ محبوسٍ في العين، كغيم لم يقطر أبدًا على أرضٍ جرداء، وكحكاية مبتورة بلا حبكةٍ ولا تشويق، وكنداء لم يجد من يُصغي إليه، بدا "نوح" في حلقة مُفرغة يدور فيها ليعود من حيث بدأ، أكلته السنوات التي قضاها يصارع أعداءً وهميين، مرضًا لم يتعرف عليه إلا بعد أن نال منه وأصبح فراقه مستحيلا، حُب لم يغفر له انطواءه وعزلته وابتعاده عنه فطارده أينما ذهب، وتشوَّشَتْ خيوط حياته فقرر الهرب، لتركض

https://jadidpdf.com

خلفه الذكرى، وتحول كل شيء إلى طيف يثب إلى رأسه كلما حنَّ وتمنى الرجوع، الآن قرر العودة، وفي العودة ربما شفاء وربما وهم كما كان الرحيل وهمًا.

***

دخل "نوح" قريته والليل قد عسعس، ألقى جسده عند أول شجرة قابلها، ترك الجمل يسعى كما يشاء، فقد القدرة على الحركة وأحسَّ أنه قد يموت في غير المكان الذي أعده لنفسه، وجلس متكئا على جزعها، أصوات الضفادع تطن في أذنيه، انتظر حتى يرى شخصًا يعرفه، كي يساعده للوصول لمنزله أو حتى إلى أبيه.

كان "نوح" يائسًا ويابسًا، يدعو منظره للرثاء، أخذ نفسه بالحيلة مرة، وبالترويض مرة، وأخيرا قادته قوة احتماله إلى أن يحمل نفسه المضعضعة ويذهب إلى القرافة، لم تكن بعيدة عن مكان الشجرة التي التقط فيها أنفاسه للحظات، سار يترنح كأنه مخمور، وسلك الطريق الجنوبي حتى لا يراه أحد، وقبل وصوله ببضعة أمتار إلى البوابة حيث يقيم أبوه في حجرته هناك إقامة دائمة، كحارسٍ للمقابر قابله العم "مِصدَّق" صديق والده الحميم وأبو "عزيز" صديقه الذي سافر إلى الخارج تاركا القرية وأهلها، كان "مِصدَّق" يجمع بعضًا من قطع الخشب الموجودة أمام ورشة للنجارة؛ كي يُشعل بها النار التي يسهر على دفئها هو و"أبو نوح"، ضمَّه "مِصدَّق" ضمةً أرجعته إلى

https://jadidpdf.com

حضن بلدته، كاد يسقط لولا العم "مِصدَّق" الذي حمله بين ذراعيه ولم يتمكن من إمساك دموعه، كان رجوع "نوح" بهذه الحالة يؤكد أن الشمعة المضيئة في حياته، هو وأبوه بدأتْ تذبل رويدًا رويدًا.

أمام الحجرة كان يجلس "أبو نوح" في انتظار "مِصدَّق"، رآه يحمل بعضا منه أو من بقاياه، صرخ "أبو نوح" ونفض عنه انكماشه وجسمه المهدود، وقام على قدمين متهالكتين وطفر دمعه وهو يحمل "نوح" واختلطتْ دموع الثلاثة.

نظر "أبو نوح" لملامح ولده الباهتة، لفَّه بعباءته السوداء، وبين يدي "مِصدَّق" حُمل إلى حجرة أبيه، كانت ملامحه مهشمة واجتهد أبوه بنظرة حادّة لعينيه الغارقتين في بحر من التوهان، حاول أن يلم جزازات ابنه المتناثرة.

أخذ جسده في الارتعاش، وكان أبوه يضمه لصدره خشية أن يتحطم، أغمض عينيه وتوقفت أعضاؤه عن الحركة قليلا وإن ظلت رموشه تختلج كالصهد خرجت أنفاسه حارَّة تلفح وجه الأب، بدا العم "مِصدَّق" منكمشًا، وهو يرى "نوح" صديق "عزيز" ابنه الذي صار وجوده الآن عزيزًا كاسمه بعدما غادر مصر كلها، تذكر على الفور ما قاله لـ "أبو نوح" : "الأبناء يشدهم الرحيل، ننجبهم ليجرهم خيط الغربة، ندَّاهات غريبة تناديهم يا أخي، وهم يصغون السمع، جيل غريب لم يلتصق بالوطن مثلنا، جيل يجري، يرمح صوب المجهول،

https://jadidpdf.com

الرحيل همه، إلى أين؟ المهم الجري"، ساعتها كأنما مدية صدئة تمر في أحشاء "أبو نوح"، كاد يمدُّ يده ليكتم فم "مِصدَّق" "الحقيقة مُرَّة، والجهل نعمة، باللهِ لا تذكرني."

قالها "أبو نوح"، وهو يعض على أسنانه متحملا الألم الذي ينخر في ركبتيه.

"نار يا "مِصدَّق" يا خوي، نار في الرُّكب، نار في القلب."

ساعتها ابتسم "مِصدَّق" في وقت لا يحتاج لتبسمه؛ كأن طبيعته المرحة التي أخذها عنه ابنه "عزيز" لا تفارقه في أشد المواقف حُزنًا.

وبابتسامة أخرى أيضًا سحب "أبو نوح" لخارج الحجرة، كانت النار تطقطق وهي تأكل قطع الخشب التي وضعت لتزكو جذوة النار، كي تدفئهم، "أبو عزيز" كما يحب أن يُنادَى في قريته، وإن كان أغلب الناس تناديه باسمه لا كما يُنادى "أبو نوح" بهذا الاسم، ولا يذكر أحد اسمه مطلقًا، متجاهلين أن له ولدا اسمه "عزيز" يُحب أن يسمع اسمه مقترنًا به، وإن سافر أو هاجر وغدر بمحبة والده له، " استعجلت الشتاء يا "أبو نوح" ، لسه بدري، احنا في الخريف"

عينا "أبو نوح" راحتا تحدِّقان في النار في حين مدَّ يديه وكأنهما تغترفان منها، وتعبِّئان صدره، أحكم وضع "الشال" على صدره، لم يلتفت لثرثرة "مِصدَّق"، سكب نظراته كلها على النار وأخذ يهم

https://jadidpdf.com

بالكلام لكنَّ شفتيه كانتا تختلجان كلما ازداد تحديقه في النار، من بين ألسنتها المتراقصة تراءى له مشهد أراد أن يصفه لـ "مِصدَّق"؛ ولذلك أوقفه بإشارة منه عن الكلام، "في النار شايف روح "نوح" تنسحب منه، طايرة لفوق، "نوح" هيسافر .."

"هيسافر تاني!، وأنت هتسيبه؟!"

كان "مِصدَّق" يُغرد في وادٍ، و"أبو نوح" لا يرى إلا النار وما تبوح به، أمره بلقم النار بقطع أخرى من أعواد الذرة الجافة أو بقطع الخشب التي جلبها، نظر "أبو عزيز" إليه باستغراب ولم يكن قادرًا على مخالفته وهو يرى عينيه تلتمعان كلما ازدادت النار اشتعالا، وكأنه يقرأ من النار سطورًا لا يراها إلا هو.

"شايف رحلة "نوح" كلها في النار، كتاب مفتوح قدامي، رحلته يوم بيوم، "نوح" تعذب يا "مِصدَّق".

"شايف ايه؟ قل لي."

أزاح "أبو نوح" التراب بيديه وكوَّمه على النار فانطفأت، وزاد استغراب "مِصدَّق".

"ما أحبك تشوف حياة ولدي وهي مكشوفة."

"أشوف ايه يا مخبول أنت؟"

https://jadidpdf.com

"اسكت، واكتم باقي دخانة النار."

"أنا هكتم بُقي واسكت، قوم نشوف ولدك، قوم يا مخبول."

دخل "أبو نوح" حجرته في حين لوَّح "مِصدَّق" بيده متصنعًا الغضب، وهو يتمتم "أيّ سر وأيّ حكاية تبوح بهما النار؟، "أبو نوح" طار عقله مما رآه، ولده الوحيد يهيم غائبًا ثم يعود مترنحًا من شدة المرض."

***

على الأرض جلس "أبو نوح" واتَّكأ على الأريكة التي ينام عليها ابنه، وضع يده على رأسه يتحسس حرارته، كان طبيعيًا ويبدو هادئًا إلا أنه كان يصدر صوتًا مكتومًا أشبه بالأنين، يضم شفتيه ويزوم ثم تعلو تنهداته فجأة ويسكن بعدها، يشعر بأن نفسه انقطع، يضع أبوه يده على رسغه، يتحسس النبض، ثم يضعها على يسار صدره، القلب يدق دقاته الرتيبة، عينا "نوح" مغلقتان، سرَّح بصر الأب في عروق السقف التي تحمل جريد النخل اليابس المُخلل بالطين، على الحائط كانت مسبحته الفسفورية الخضراء معلقةً، تُومض باعثة ضَوءًا شحيحًا يزيد من رهبة المكان المدجج بالموتى من حوله، رائحة الموت تهبُّ كل ليل خاصة عندما يهلُّ السحر، الموتى يتنفسون في غضب، يخرجون غيظهم وحنقهم على العالم الذي ودَّعوه بأمنيات لم تتحقق، احترقت أكبادهم من أجل السعي وراء الأحلام المُحبطة التي انتهت بهم إلى

https://jadidpdf.com

حفرة قذرة يجري فيها الدود في كل مكان باحثًا عن شيء يسد جوعه الذي لا ينفد.

من بين ثقوب صغيرة في السقف ينفذ هواء بارد يلسع جسد الأب فيرتعش، تتسرب الدموع من عينيه، يفكر في الذي حدث منذ قليل، كيف تمكن أن يرى سطورًا مكتوبة بين ألسنة النار يقرأ فيها قصة ابنه؟ هو الذي يفك الخط بالعافية، النار تهبه معرفةً كثيرًا ما حاول تجاهلها طول عمره، أحوال "نوح" وشروده، الأشياء التي نبهه لها صديقه "مِصدَّق" "الأولاد يكبرون ونحن لا نفكر فيهم"، لم يجلسا أبدا مع ولديهما ويتحدثان معهما، شغلتهما الحكايات، كانا يرددان دوما ويقنعان أنفسهما أنهما مازالا عيالا، حتى نصائح "مِصدَّق" لم ينفذها هو على ابنه "عزيز"، مضى "عزيز" متجاوزا طفولته إلى مراهقة كلها عبث واستهتار حتى طأطأ رأس والده من الخجل، لم يفرح ولم يحزن - يومًا - لفراق ولده وسفره، لا يدري أهو ارتاح من نزقه وطيشه؟ أم أنه سيأتي يومٌ يحتاج فيه إلى ابنه الأكبر؛ عكازة يستند عليها في شيخوخته القادمة؟، يرى "أبو نوح" والهِرم ينخر في جسده وروحه، لو كان له ولد آخر غير "نوح" لتعكَّز عليه، لكن جاء "نوح" وحيدا مع بنتين في بيت زوجيهما الأخوين في بلاد بعيدة.

تساءل "أبو نوح" تُرى هل هذه هي منحة الشيخوخة التي منحها له الله سبحانه وتعالى؟

https://jadidpdf.com

معجزة بسيطة كهدية على عذابات السنين الماضية.

قهقه بداخله "أي منحة وأي معجزة؟! أعيش في عذاب وأُنهي حياتي لأرى عذابات ابني الوحيد؟"

"إنها منحة الشيطان يا غبي."

الصوت صدر من ثُقب من الثقوب التي تحدف الهواء البارد، مضى الزمن الذي يخاف فيه "أبو نوح" من العفاريت، العمر ضاع أصلا وسط الأموات وحكاياتهم، ومشاهدتهم محمولين بلا حول ولا قوة، يلقون في جوف قبر لا يشبع أبدا ثم تحوم أرواحهم ليلا هائمة، كانت تعذبه في أيام شبابه أما عندما كبر ومرت أمام عينيه مئات الجنائز؛ رجال ونساء، شيوخ وأطفال، تمرغت أمهات لتيتم أطفالهن، ومكابدتهن الترمل في سن مبكرة، والحياة لا ترحم وحيدًا أبدًا، من هؤلاء فتاة شابة مات زوجها بعد أشهر من زواجه بها، تركها وثمرة تنبت في أحشائها، لفظتها بعد خمسة أشهر من وفاته؛ طفل يستهل الحياة باكيًا وسيظل بكاؤه مادام لن ينطق بكلمة "بابا" طيلة حياته.

https://jadidpdf.com

وَتَنَاجَى فِي سِرِّه "سيُهدَّدُ عَرْشُ الشَرِّ عَن طَرِيْق نَسْل يَنْتُجُ مِنَ الحُبِّ يَلْتَقِمُ الشَّرَّ، ويُنْقذَ "نوح" مِنَ الهَلاكِ، فَهَلْ تَتَحَققُ المُعْجِزَةُ؟"

https://jadidpdf.com

نُــوح

"إنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ"

"ظلمت نفسك يا أبي، اختصرت حياتك في حجرة، حارسًا للموتى، منذ متى والموتى يحتاجون للحراسة؟! نصَّبت نفسك مَلِكًا على الصراط القائم بين خيط الحياة وخيط الموت، حتى الحَفَّار الذي يتقاضى أجرًا مقابل دفن الموتى يعود إلى بيته آخر اليوم ينفض التراب عن ملابسه، ويضم أطفاله إلى حضنه يحيطون به فيطردونَ الأرواح العالقة بجسده، يده التي تحمل الموتى اعتادت على ملمس أجسادهم المستسلمة، تُوسِّدهم وتوجههم للقبلة، وتكشف عن الوجه، الوحيد الذي يرى وجه الميت قبل أن يُترك وتغلق عليه مقبرته.

عم "أبو ضيف حسانين"، السِّحنة السمراء، والجسد النحيل، النظارة الكبيرة البُنية والشيخوخة الطاحنة، لم يصحب أبي مثلما فعل العمّ "مِصدَّق"، ولم يتخذه صديقًا، ربما لم تعجبه حياة أبي التي أوقفها على الموتى وحكاياتهم، أن يُقيم بجوار الناس الذين يردد سيرتهم ليل نهار، عم "أبو ضيف" كان ينظر لعمله على أنه مهنة لا يمكن تجاوز

https://jadidpdf.com

كونها مصدرًا يرتزق منه، ويطعم من خلالها أبناءه، لكن أبي انغمس في هذا العالم أو كما يردد هو دائمًا "إنها ليست مهنة بل واجب تُمليه عليه الظروف والأقدار"، ومضت الأقدار بأبي بعيدًا عن بيتنا، أمي تيبست أيامُها وهي ترى زوجها وقد اُختصرت حياته بين أربعة جدران تنتصب على عظام الموتى، وابنتين تزوجتا ورحلتا في بلاد لا تصلهما قدماها المتورِّمتانِ، الوحدة القاتلة التي تجرحها عمتي؛ أخت أبي الأرملة، حتى وجودي أنا في البيت كان هادئًا وغالبًا ما يكون إمَّا للمذاكرة وإمَّا لمطالعة كتاب قبل أن يصطحبني "عزيز" وأعرف الطريق إلى مكتبة الجامعة هناك يتركني ويذهب بحثًا عن صيدٍ، يقضي معه اليوم، ثم يأتيني، وقد انتهيت من قراءة الكتاب الذي أمامي، كان يُشعرني أني كالأعمى يحتاج لبصير يقوده، أو لعصا يتحسس بها الطريق، أو أنا الذي كنت أشعر بذلك، تعمَّق الإحساس بداخلي وأقنعت نفسي به، وأسلمتها لعالم خَلقته من تخيلاتي ومن قراءاتي ثم جاءت حكايات أبي لتُكمل ثالوث حياتي الذي حُوصرت بداخله.

أطعت قدميَّ وسِـرْتُ أتحينُ الفرصة التي يجلس فيها أبـي مع عم "مِصدَّق" ويبدآن في الحكي، "عزيز" أيضًا كان يجلس بجواري، أحيانا يُرهف السمع لشيء يُقال وأحيانًا أخرى يقوم ويتجول بعيدًا عنا ولا أعرف أين يذهب؟، كانت حياتي كنهر صغير، غدير كما علمنا معلمُ اللغة العربية ذو النطق السليم والحروف الزاهية، كانت لكلماته

https://jadidpdf.com

وضوحًا وتأثيرًا وكأنها ملونة تخطف الأذن وقت سماعها، الغدير ظل ساكنا ولم يُلقَ فيه حجرٌ يحرك سكونه، ولم تجرِ مياه جديدة إلا عندما وصلتُ لمرحلة البلوغ، وبدأ السكون يزحف متحركا ببطء ليحل كائن غريب له أعضاء مختلفة عن ذلك الصبي الذي عشته لسنوات عديدة، بدأتْ رحلة التغيير، وكانت في بطء سلحفاة أحسست بكل يوم يمر وبكل ساعة ودقيقة، طالعت وجهي في المرآة فوجدت الكائن قد بدأ يتشكل وتظهر ملامحه في وضوح، ورويـدًا ذهب الطفل عني، غادرني بلا رجعة، وشعرت بالحنين إليه وإلى أيامه التي ولَّت ولن تعودَ، لم أستطع أن أعود إلى ذلك الزمن إلا من خلال صورتين؛ الأولى التقطها لنا أبي مع أختيَّ؛ أختي الكبيرة بضفيرتين طويلتين والصغرى معصوبة رأسها بإيشارب أمي، تُقلد نظرة الكبار في جديتهم، أما أنا فقد بدوت كعادتي نحيلا، مغمض العينين – وهذه حالتي في كل الصور- أرتدي بنطالا أزرق بهت لونه على الركبيتن، كان القميص الأبيض مبقعًا ببقع بُنية من أثر البلح الأخضر الذي كنت أضعه في جيوبه، وكثيرًا ما حذرتني أمي، ولم أصغ لنصائحها، وكانت تنهال شتائمها عليَّ دون نيَّة مني الرجوع عن حبي للجري في الغيطان، ورجم النخلة العالية أنا و"عزيز" الذي جمعتني به صورة قديمة جدًا وباهتة، لم يبدُ فيها إلا أنفه الذي كانت قد بدأت تكبر، أسفلها نبت الزغب الأصفر بشعيرات مُدببة؛ سبقني في بلوغه بسنوات كانت جديرة به أن يتعلم من المراهقين الذين

https://jadidpdf.com

أصبحوا شبابًا كيف له أن يُرضي غرور ذلك الكائن الجديد المُلح برغباته التي لا تنتهي، وكأيّ مراهق ترك له أبوه الحبل على الغارب راح يجرب كل شيء؛ ليعرف سر اللذة في المحرمات، كل محرم مرتبط بلذة، وكل ما نرغب فيه متعلق بأدوات من التحريم والتجريم، كان عليَّ أن أرى "عزيز"، وهو يتخطّى كل الحواجز، يقفز كحصانٍ دُفع به إلى أرض السباق دون تدريب سابق، مؤهلاته الجسدية هي التي أغرته بالمغامرة، وكالعاصفة التي لم تجد شجرًا ولا بيتا يصدها راح كائن "عزيز" ينطلق ويصهل مُسببًا قلقا وإزعاجًا لكل من حوله؛ جرَّب كل شيء بَدءًا من إمتاع نفسه بنفسه إلى أن امتدَّت يده إلى مكامن الرغبة في الأجساد المختلطة في الزحام، جرّب كل أنواع السجائر حتى حطت ركابه على المخدرات رغم أنه لم يُطل الوقوف ولم يلبث أن غادرها إلا أن هالة سوداء سكنت أسفل عينيه، اكتفى بالعبث وشبع منه، وكان قراره بالرحيل نقطة الختام لأشياء بدأها أربكتْ كياني ووضعتني على صليب الحيرة مشبوحًا، تمطرني سياط الرغبة، أتخلص منها لأرتمي في أحضان الندم.

https://jadidpdf.com

مُتون الأحْزان
مَتْنٌ أول

أقول أنا "نوح" ابن حارس المقابر، المُعَفَّرُ بتراب الموتى، المُحاط بهم في كل مكان يذهب إليه، سأظل موثق الأيدي، تتقاذفني أمواج الحياة لا أجد لي مرسى تستقر على متنه سفينتي، اتجهت محملا بجسدٍ يحمل بذور مرض لا يعرفه، وروحٍ مثقلة بحمل رحيل الأصدقاء، وقلب هدَّه الحُبُّ، كان عليَّ الرحيل إلى الصحراء حيث النداء المُلِحُّ الذي ما يزال يلاحقني منذ وعيت على الدنيا، ويا ليتني ما وعيت.

للصحراء رائحة لا وصف لها، في الصباح أشم ريحًا خفيفة آتية من الشرق، استطعت أن أحدد الجهات من خلال الطريق المسفلت الذي يبعد عن مكان إقامتي ببضع كيلومترات، تمكنتُ من تحديدِ القِبلة، أفرش رداء خصصتُه للصلاة، أركع وأسجد في خشوع، مكنني الراديو الصغير من أن أعرف موعد الصلاة، كانت لديَّ بطاريات كافية طوال مُدة إقامتي، أُنسي الوحيد هو تلك الأصوات المنبعثة من الإذاعة تغيب وتعود، حتى صوت التشويش كان يؤنسني، الصحراء عالم متسع، فسيح

https://jadidpdf.com

كالنفس البشرية تتعارك فيها أمواج الرمال الناعمة، وتتضارب طامسة الأعين ومغبرة الثياب، هكذا كانت نفسي الظامئة، الجافة من العطش محشوة برمال كهذه الرمال التي لا عد لها ولا حصر، كل ما بداخلي يتلاطم ويهزني فأكاد أسقط لولا تماسكي ووجود الصخرة التي أستظل بها عند اشتداد حرارة الشمس.

الظمأ .. العطش هكذا يسمونه، يعرفونه من "نشفان" الحلق، والتصاق أركانه بعضها بالبعض، اللسان جاف، خشن كحجر لم يمسسه ماء قط، والشفتان متيبستان، خاليتان من الحياة، في طفولتي لم أعرف معنى للظمأ إلا في الأيام المحدودة التي كنت أحاول فيها الصيام نصف نهار أو أكمل اليوم في الأيام الباردة التي لا أحتاج فيها لشرب الماء، عندما كبرت، وامتلأت رأسي برمال الأفكار المتعاركة، لم أعرف معنى للري، هنا في الخلاء، تهدأ المعارك الداخلية لتبدأ العين في التقلب متطلعة إلى الأفق، السماء هنا واحدة أو هي بالأحرى بوجهين، وجه يظهر بالليل عابث، ولولا نقط النجوم المرشوقة في ثوبها لركبني الخوف، وجه النهار حارق بشمسه وناره التي تبعثها، لا فرصة هنا للتأمل رغم حاجتي للتطلع، أقضي النهار بالخيمة التي نصبتها فور أن جئت، وعندما أخرج لجلب المياه من البئر القريبة التي حددتُ إقامتي بالقرب منها، لولا الصخرة والبئر لتُهت في الصحراء وما وجدت مكانا أحط فيه، كنت كطائر عجوز ضلَّ طريقه، فأطلق جناحيه المنتوفين،

https://jadidpdf.com

يبحث عن مأوى له، أو سرب جديد ينخرط فيه، طال الترحال حتى هدَّه التعب، وجف ريقه من العطش؛ العطش مرة ثانية، كل الكائنات تخشاه وأنا أذهب إليه بنفسي!

بذلت جهدًا في تنظيف البئر، كانت قديمة موحشة، نُسجت خيوط العنكبوت على فوهتها، الماءُ غائرٌ بعيدٌ، لا يتراقص الضوء الساقط عليه، كأنه تجمد، أو جف، ألقيت حجرًا لأتأكد من عدم جفاف البئر، ارتطم الحجر بالماء فأحدث صوتًا، نظرت فوجدتُ دوائر ترتسم على صفحته، ابتسم البئر بعدما دبَّت الحياة فيه، ارتعاشة سرت في أوصاله، وسمعت صوته في أذني يشكرني، ألقيت حجرا ثانيًا ثم ثالثًا تسليت بهذه اللعبة وكان ضحكه يزداد وابتسامته تتسع، كنت أُلقي الحجارة منتظرًا سماع قهقهته، لا يقهقه إنسان حزين أبدًا، إنه بئر وليس إنسانا، لكنه يحس كأي إنسان أو أفضل من كثير منا، كنت أربتُ عليه بقطع الحجارة، كأني أطعمه الونس، وأزيل عنه وحشة الوحدة التي ظل يعاني منها كثيرًا، لم يقربه الدلو منذ زمن، عرفت ذلك عندما وجدت عُشا مهجورا داخل الدلو، به أعواد صغيرة وبراز جاف لطائر ما، وريش أبيض وآخر رمادي اللون، تُرى أيكون هذا هو الطائر الذي خلته ضلَّ مثلي الطريق وحط هنا في الدلو ليستريح؟ لكنه صنع عُشًا بدون وليفة، أكان يوهم نفسه ويُسري عنها بقرب مجيئها؟، فصنع لها هذا البيت الذي أقفر الآن، أم أنه مثلي اختار طريقًا للرحيل ولم

https://jadidpdf.com

ينتظر؟، ربما مات ذات يوم من الجوع والعطش بعدما بذل من الجهد والطاقة في انتظار قدوم رفيقته، آه لو يأتي هذا الطائر لآنسني في وحشتي ولبكينا معًا على حالينا.

لو مات الطائر ظامئا لوليفته فأين تكون الآن جثته؟ أو على الأقل أين بقاياها؟

في بطن ذئب أم في بـرازه؟ أم تحللت وتناثرت في سفيف الرمال الناعمة؟ لعلها هي التي لطمتني يوم أن جئت لهذا المكان، عاصفة رملية شديدة شممت فيها رائحة الحنينِ؛ حنينِ مُوجَعٍ فارقَ حبيبته، في هذه الساعة تذكرتك يا "أسماء"، أنا الذي ظننتُ أني جئت هنا لأنساك فأجدك مع أول هبة ريح، ستكثر هنا الريح وستطمس الرمال عينيَّ، كنت مستعدًا لكل ذلك، لكني لم أكن مستعدًا أن أواجهكِ هنا بمفردي، لا جـدران كي تحوطني أو تحضنَ روحـي، لا سقف يؤويني فأختبئ تحته، وأدس نظرتي في عروقه، أهـرب من صورتكِ التي تتراقص أمامي، كثيرا ما فعلت ذلـك، تحاشيت أن أغمض عيني، الخيال أقوى وصورتكِ تحضر، وابتسامتك لن تقوى روحي على تخيلها.

كانت تأتي على خيالي أفعال "عزيز"،وكل السنوات التي قضيتها في صحبته.

نظفت الدلو من بقايا العُش الذي كانت رائحته ما تزال باقية، أنزلت

https://jadidpdf.com

الحبل فهوى إلى أسفل حتى ارتطم بالمياه، وبدأت أسحب الدلو الذي كان يصعد بسهولة رغم ثقله، كان سعيدا، ومنظره وهو صاعد يرقص والماء يتقاطر منه، طمأنني قليلا، وأدخل على نفسي السرور، البداية طيبة، كنت أُفرغ الدلو بالقرب من البئر، ملأته مرات ومرات ثم أفرغته إلى أن اطمأننت لنظافة الماء، ملأت كفي وشربت، كانت المياه حلوة، باردة تلطف الأحشاء، الماء حياة حقًا، لمَّا سرى في جوفي أحسست أن الحياة تعود إليَّ، ملأت كفي، وأخذت أرشف منه وأعبه لأملأ أحشائي، طفر العرق من مسامي وأحسست بالراحة، ذهبت إلى الصخرة اتكأت عليها، وراحت الشمس تصب حرارتها على رأسي، جلست خلفها،كانت رحيمة بي فحجبتْ عني الشمس، ورحت أطوف بعيني أبحث عن مكان أدقُّ فيه خيمتي قبل حلول الليل، كان عليَّ أن أجمع كثيرًا من الحطب لأشعل النار عند قدوم الليل، الذئاب هنا لن ترحم آدميًا، قطع الخشب التي معي لن تكفي سوى ليلتين، بعدها ستزحف الظلمة بالذئاب تتعقب رائحتي حتى تصل إلى مكاني.

كانت الخيمة التي وجدتها عندما أتيت إلى الصخرة الكبيرة من "الخيش"، دققت أوتادها الأربعة في الرمال، ثبتها جيدا، وأمسكت بقطع "الخيش" وعلقتها على الأوتاد، وبحبل صغير أحكمتُ تثبيت أطراف الخيمة، كنت أعلم أنها لن تقوى على الريح العاصفة، لكني تيقنت أن الليل لن يكون للنوم وإنما لإشعال النار لطرد الذئاب،

https://jadidpdf.com

ستكفيني بضع ساعات بالنهار أريح رأسي تحت الخيمة، ألتقط راحتي فيها ثم أصحو لأواصل رحلتي النهارية في جلب الماء، وجمع الحطب، وجلب الطعام كلما نضب زادي، كان معي جراب قماشي كنت أضع فيه كتبي المدرسية وأنا صغير، أحضرته معي، ورتقت الخروق القليلة الموزعة في جانبه، في الجراب وضعت الكثير من الخبز المتيبس الذي كانت تصنعه أمي، سيبقى معي كثيرا، هذه الكِسرات لن تعطب أو يصيبها عطن، في برطمان صغير ثمرات من البصل، قدرتُ بعملية حسابية أن هذا الطعام سيكفيني شهرين أو ثلاثة، كنت واهمًا طبعًا، بعدها سأرحل إلى الطريق المسفلت أستقل عربة وأحضر أيَّ شيء آكله، ثم أعود إلى مكاني، نصبت الخيمة، وفرشت ثوبين قديمين على أرضية الخيمة، وصنعت من "البقجة" – التي أفرغت أغلب ما بها إلا من بعض الملابس– وسادة أنامُ عليها.

الشمس بدأت في الرحيل مُخلِّفة لونا أحمر مخيفًا، نظرت إليها من خلال ثقب في الخيمة، الشمس حزينة، هنا أيضا وحيدة، كل شيء في الصحراء يبدو وحيدا، كأنه ليس هو الذي يطل علينا في العَمار، حتى الرمال كانت مستسلمة عندما فرشت الثوبين، انحنت، وناخت مستسلمة، شعرت بالخوف، الحزن من حولي كثيف، والوحدة مفزعة، أول ليل لي في الخلاء، الصحراء موحشة خاصة بالليل، جربت كثيرا السير بعيدا عن العمار في قريتي، جلست وحدي أتأمل الكون لساعات

https://jadidpdf.com

قريبا من المقابر وسط الرمال، لكني لم أشعر بالخوف أبدًا، كانت أنفاس أبي تلاحقني، وقدوم "عزيز" في أي وقت متوقع، هنا لو زعقت حتى الموت لن يسمعني أحد، الظلام يقترب، والشمس اختفت تماما، لا صوت كي يختفي ولا جلبة حتى تسكن؛ السكون في الصحراء دائم ليلَ نهارَ، والحركة غائبة، تنادت أصوات هامسة قادمة من داخلي، استجبت لخدر سرى في جسدي، وضعت رأسي على "البقجة" وتمددتُ، دارت عيناي في جدران الخيمة، ثم أغمضتهما، وصل بي الإعياء حدا أحتاج فيه الراحة، غفوتُ قليلا، بضع دقائق، ثمَّ أيقظتني حركة بجانب الخيمة، شيء ما يزحف، يضع أنفه، يتحسس رائحتي، تتحرك الخيمة للداخل، فتحت عيني، كان الظلام تاما، كأني ما زلت مغمض العينين.

النار مقدسة .. النار شعلة الحياة المشعة معرفة وقسوة...من ينكر ذلك؟

في الليل أحتطب وأشعل النار، تدفِئني وتحميني من شر الذئاب وعوائها الذي لا ينقطع، أرتعد، أحس بالأمان لوقتٍ وهي ترقص أمامي، لكنها لا تطمئنني أو تُوقف وجيبَ قلبي، بالنهار تصب الشمسُ نارَها ولعنتها ووهجها فتحرق وجهي وتخنقُ روحي، ألجأ للخيمة التي لا تصمد أمام خيوط الشمس، تتسلل عبر الثقوب التي أجتهد في رتقها دون فائدة، الشمس نار حاميةٌ أيضا؛ النار تلاحقني دائمًا، في صباي كانت أمي تهددني بعقاب الله إذا أذنبت وعصيتها، أخبرتني أن فوق سطح بيتنا

https://jadidpdf.com

"برميلا" كبيرا يَحرق الله فيه العُصاة بمساعدة سيدنا محمد، ظلت تطاردني صورة النار، وهي ترسل ألسنتها خارجة من فوهة "البرميل".

لما نمتُ ونسيت إشعال النار صحوت على ذلك الشيء الذي يتلصص ويمط رأسه، يريد الدخول، دسست يدي في جيبي وأخرجت القدَّاحة، ضغطتُ عليها، لم أرَ شيئًا في البداية، تلفتُّ لأمسك بعصا جواري، كان كل شيء مهيئًا لمواجهة المجهول، حرصتُ على إحضار أدوات الدفاع لمواجهة أي خطر داهم، نهضت متسلحًا بالعصا الغليظة، وعلى هدى من ضوء القداحة، نظرت فإذا بثعبان يلتف حول أحد أوتاد الخيمة ويدفع رأسه فيها ويسحبها، هدأت قليلا لما عرفت أنه ثعبان وليس ذئبًا، الثعابين أرحم كثيرًا من الذئاب، لكن الذئاب تفر من النار أما الثعابين...

في لحظتها نبتت في رأسي فكرة أن أبتعد قليلا كي أتدبر أمري، ذهبت ناحية الصخرة، جلست فوقها بعدما امتطيتها؛ كانت عالية، تشبه منصة إعدام أو ربوة مخصصة للتعذيب، دارت الأفكار في عقلي، قلت لنفسي الثعابين ليست هي الحيوانات الوحيدة الموجودة في الصحراء، لكل حيوان حيلة لقتله أو إبعاده، فما حيلتي مع هذا الثعبان، لمَّا عدتُ إلى الخيمة أشعلت القدَّاحة، نظرت من مسافة قريبة فوجدته هادئًا ملتفًا حول الوتد وكأنه لا يشعر بي، دخلت الخيمة، أحضرت بعض قطع الخشب، وبدأت أشعل النار التي أخذت في السريان في أوصال الخشب

https://jadidpdf.com

رويدا رويدا، احتفظتُ بمسافة معينة بيننا، لوهلة شعرت بأُنسه في ليلتي الأولى في الصحراء، كان ساكنا لا يتحرك، أستطيع أن أتسلَّى به، ويسري عني، أصاحبه، ما دمت لن أؤذيه فلن يقترب مني، سأكون كالإنسان الأول الذي صحب الحيوانات، أطعمه من طعامي، وأسقيه من ماء البئر، سيؤنسني وأؤنسه، مرت ساعة أو يزيد، كان الهتاف ينبعث بداخلي ويطمئنني أن النار ترفق بي، حتى أن الثعبان تطامن، وسكن مكانه، واستقر في قلبي أن النار مقدسة؛ النار التي دفعتني بعيدًا هنا في الصحراء، حيث لا بشر ولا "هي"، الآن هي التي تربت عليَّ، مرَّت ساعات أُخر، شعرت بالجوع فمنذ جئت لم أطعم شيئًا، دخلت الخيمة وأحضرت من الجراب قطعة خبز يابسة، بللتها بالماء، ورحت آكلها وأنا أنظر للثعبان المتجمد في مكانه، انتهيت من طعامي، وسمعت صوت ذئب يعوي من بعيد، ويرد عليه ذئبٌ آخر، من الآن عليَّ أن أتعود صوت عواء الذئاب وصحبة الثعابين.

كلما هدأت النار أطعمتها بقطعة أو قطعتين من الخشب، من الغد لابد من جلب كمية كبيرة من الحطب، سأقضي الليل كله في إشعال النار، كانت لسعات البرد تخرق ضلوعي، أحكمت سترتي جيدًا، ولففت رأسي بشال كبير قديم كنت قد أخذته من خزانة أبي، أغمضت عيني أزجي الليل وأنا أمرح في خيالي، أتذكر أشياء حدثت لي، في طفولتي وفي شبابي، كان الخيال ملجئي في وحدتي، أو ما يسمونه بأحلام اليقظة،

https://jadidpdf.com

سافرت لبلدان كثيرة، وطفت الأرض شرقًا وغربًا؛ الخيال جنة وحياتنا نار، نار كالتي أراها أمامي ليل نهار، أهرب من ناري لأرتمي في أحضان جنتي، الآن ذهب خوفي من الثعبان، قررت ألا أقترب منه ولا أحاول قتله، سأتركه في مكانه، محتميًا بخيمتي، أنا مؤتنس بحضوره، ربما يكون قد جاء إلى هنا مثلي وللسبب الذي جئت من أجله، ربما يكون مطاردًا، أو عبثت به الحياة فقرر الاعتزال، والاختلاء بنفسه فلجأ إلى خيمتي، ربما لا يراني أو يحس بي، أو يطمئن لعدم غدري به، كل كائن يألف بني جنسه ولا يتوقع الغدر إلا من الأجناس الأخرى، لكن الحقيقة أن الخيانة والغدر تأتي من أقرب الناس إلينا، ساعات الليل تمضي، لم يقربني الثعبان ولم أقربه، ولو مضت سنوات على حاله وعلى حالي، سنستمر كذلك.

خيوط الفجر تتسلل، مخترقة ظلمة السماء، راسمة عيون كثيرة تطل على الكون في محبة وسلام، كان الضوء ينسال من العيون كدموع الفرح، الفجر بسَّام، يدعوني للتأمل فيه قبل حلول شمس الصحراء الحارقة نارُها؛ النار مرة أخرى، تنطفئ نار ليلِي لتبدأ نارُ نهاري!

ابتعدت عن الخيمة بضعة أمتار، بالقرب من الصخرة، حفرت حفرة صغيرة قضيت فيها حاجتي ثم توضأت وصليت ركعتي الفجر، كانت رائحة الصحراء تأتي مع نسمات الفجر، دقات قلبي هادئة، كأنها توشك أن تتوقف، سلام وطمأنينة سكنا نفسي، نظرتُ للسماء التي

https://jadidpdf.com

بدت رمادية منذرة بقدوم الشمس، تفكرت فيما يحدث لي، ناجيت ربي هامسًا "لست صوفيًا أو راهبًا متنسكًا وإلا لما قدَّسْتُ النار؛ أنا قدستها ولم أعبدها، أُمرت وما كان لضعفي أن يغلب قوتها، لكنَّ حبُّك ياربُّ يسكنني، وأعلم أنها مشيئتك، استسلمتُ لقدرك، الذي أتى بي إلى هنا وسأظل إلى أن تأذن لي بالرحيل أو أظل باقيًا، برعاية مخلوقاتك، الذئب يرعبني والثعبان يهدهدُ روحي ويؤنسني في أول ليل لي في خلوتي، سبحانك يا ربُّ، لا تظلمُ ولم تظلمْ قط".

عندما عُدت للخيمة لم أجدْ الثعبان ملتفًا حول الوتد، نظرت بداخلها لعله اختبأ بين طيات أشيائي، بحثت عنه في كل مكان، حتى "البقجة"، أخرجت كل شيء منها ونظرت جيدًا، لما تأكدت من رحيله، أصابتني وحشة، ألمْ أقل إني أنست به؟، صوت الذئاب هدأ تمامًا، نغزٌ في قلبي أصابني، دائمًا ما يأتيني عندما تشتد عليَّ نوبات الحنين، تذكرت أيام كنت أتساقط وأتلوى عندما تغرقني أمطار الشوق، لم يكن الخيال رحيمًا بي، كنت أغادره وأسعى بعيدًا عن جنته المتوهمة، أفتش عن علاج لداء الحنين، جرَّبتُ أشياء كثيرة بَدءًا من جلوسي وحيدا بين القبور أو بالساعات في المعبد، وانتهاء بلجوئي للتدخين، أغمس نفسي في أي شيء يشغل عقلي الذي كان لا يكف عن تذكرك يا "أسماء".

تمدد جسدي داخل الخيمة وأسلمت نفسي للنوم قبل مجيء الشمس وحرارتها القوية، أغمضت عيني وقررتُ أن أتخير وقتين للنوم تكون

https://jadidpdf.com

الشمس فيهما متأهبة للرحيل أو للقدوم، في هذه الأوقات تكون الذئاب نائمة، غلبني النوم إلى أن اخترق الخيمة خيط من الشمس، أيقظني فقمت فورًا وغسلت وجهي من الماء الموجود في الجالون، كان عليَّ أن أقضي النهار في جمع الحطب لإيقاد النار ليلا، فكرت لو أني أجد شجرة هنا، يسمونها "بنزين الصحراء" تشتعل أوراقها، وهي خضراء، وتدوم مشتعلة مدة أطول بكثير من الحطب ومن الخشب الذي أحضرته معي، وقفت وجعلت الصخرة عن يساري واتجهت غربًا ناحية البئر التي نظفتها بالأمس، حملت الجراب بعدما وضعت فيه قطعا من الخبز الجاف، وجالون الماء الصغير، سرت بضع ساعات إلى أن أدركني التعب، نظرت من حولي فلم أجد ظلا لجسدي تأكدت الآن أن موعد الظهر قد حلَّ، عليَّ أن أعود وإلا لاستغرقتْ عودتي وقتا طويلا ولحل الليل، والليل هنا مأساة ومَهلكة لي، عرفت الآن قيمة للشمس التي أعاني منها، والتي نحبها فقط في الشتاء.

دُرت برأسي علِّي أجدُ الشجرة التي أبحثُ عنها، لكن اللون الأصفر هو السائد؛ لون الموت والخراب، لون كنت أحس به طوال حياتي لكني لم أره بكل هذا الوضوح، لم أجد شيئا يجرح صفرة الصحراء، عدتُ من حيث أتيتُ، وكانتْ عيناياَ تتلفت لعلها تقع على شيء أخضر نابت، سِرْتُ مدة ساعة، ولم أجد شيئًا وقلت لنفسي إني واهم فمن أدراني أنها تنبت في صحرائنا؟، هي في سيناء يستخدمها البدو ويتقاتلون عليها، وويل

https://jadidpdf.com

لمن ينزعها تماما فلهم طريقة في جزِّها حتى تنبت فروعها مرة أخرى، تنمو أيضًا في صحراء ليبيا، أين صحرائي من هذه الصحاري؟ صحرائي لا ينبت فيها أي شيء، هي كذاتي مقفرة خالية حتى من شجر لن يفيدني إلا لإشعال النار، النار مرة ثانية، أتتْ بي إلى هنا، وها أنا أهيم مشروخ الروح لأبحث عنها وأعاني منها ليلا ونهارًا؛ يا ضيعتي إن بقيت هنا بدونها سأكون طعاما للذئاب؛ أنا الذي قضيت عمري أرى الموتى والتراب يحضنهم، يدخلون القبر بكل استسلام وهدوء، راضين بنهايتهم، شَرَّفتهم الدنيا بجنازة ومشيعين ورحيل يليق بحياة كريمة عاشوها ثم وجدوا قبرًا يُؤويهم في حياتهم الأخرى، ثم أدفن أنا في أحشاء ذئب، يطعمني لأولاده، يتقاسمون جيفتي ليلا، وربما يتركون جزءًا مني لنسور آبقة هنا تقتات على بقيتي، عشت موزعًا في دنياي ثم أتوزع في آخرتي، سيكون لي مئة قبر، يحمل أجزائي التي تتنازعها الذئاب، حتى دمائي ستشربها رمال الصحراء أو تُبخرها نار الشمس، قضيتي كلها مع النار، تلاحقني أينما ذهبت، فهل بعد كل ذلك سأسلم منها في آخرتي؟! سأعود إلى الخيمة وهناك بجوار الصخرة أحفر لي قبرًا، وأكتب عليه شاهدًا مناسبًا، به اسمي كاملا وآية قرآنية، مع بيتٍ من الشعر الذي يرثي حالي، أفكر في كتابة البيت الذي يتردد الآن على لساني:

عَوى الذِئبُ فَاستَأنَستُ بالذئبِ إِذ عَوى وَصَوّتَ إِنسانٌ فَكِدتُ أَطيرُ.

https://jadidpdf.com

المهم أنَّ من يصل إلى قبري، يترحم عليَّ، عسى الرحمات أن تمطرني، أنا الذي سأدفنُ نفسي بنفسي، أُغسلُّها وأصلي عليها، لكن عساي أن أحس بقدوم الموت، وسأجهز كل شيء بنفسي.

وتفكرت مليًا في حالي وبمجيئي هنا وحيدا، فتسرب دمعي، وأحسست بالعطش فشربت قليلا من الماء، بللتُ شفتيَّ، وبباقي المياه الموجودة في الجالون توضأت وصليت ركعات الظهر الأربعة، هدأت نفسي لما انتهيت من صلاتي، بعدها بللتُ نصف رغيف يابس وللمصادفة وجدت قطعة جبن قديم في قعر الجراب فغمستها بها، كان طعمها لذيذا، الطعام هنا له طعم مختلف، مرَّرْتُ قطعة الجبن الحريفة بلساني داخل فمي، ورحت أستمتع بطعمها، آخر قطرات ماء في الجالون سكبتها في جوفي، وحشت السير صوب خيمتي.

عدتُ إلى الخيمة والشمس قد انكسرت حدتها، التعب هدَّني، وقدمايَ لا تتحملان الوقوف، توجهت للبئر، أنزلت الدلو، تدلَّى رامحًا لأسفل، سحبته وملأت الجالون، وبالباقي رحتُ أسكب فوق رأسي المياه الباردة، فقط بضع قطرات لئلا تصيبني الحُمَّى، توضأتُ، وكان عليَّ أن أكون مستعدًا لثاني ليلة أقضيها هنا، مع فراغي من الصلاة، جهزت كل شيء؛ بعض الحطب، والخشب وأعواد الثقاب وضعتهما أمام الخيمة، يتبقى على الغروب ساعة أو أكثر سأحاول قبل حلول الليل، أدرت الراديو لكيلا يحدث مثلما حدث بالأمس ويغلبني النوم، وضعته

https://jadidpdf.com

بجواري داخل الخيمة التي أحكمت غلقها، انساب صوت يرتل القرآن، كان الصوت جميلا، لم أُمِّيز القارئ، لكن نفسي ارتاحت له وغفوت ولم أستغرق في النوم، كنت كالذئب ينام مُغمضًا عينا وفاتحًا أُخرى؛ تعلمت أول دروس الصحراء، أن تكون يقظًا وأنت نائم، لا تعرف ما هي الراحة، وتوطن نفسك أن القسوة هنا هي قانون مقدس، كل شيء قاسٍ؛ الطبيعة، الشمس، الحيوانات، حتى الإنسان قاسٍ بغيابه وتركه المكان موحشًا، لو يعمر هذه الرمال الشاسعة لأزال من قلبها الصخور الجامدة التي لا تلين، لكن الإنسان استعار من تلك الصخور صلفها وعصيانها وقسوتها، تركها هنا تعذبني، وراح يعذب إخوته من البشر.

في منامي القصير رأيت الثعبان الذي كان بالأمس يطوف بجناحين حول الخيمة، يرفرف كطائر ماهر، يجيد الطيران في مكانه، كان يضرب الهواء فيكاد يسقط الخيمة، نظرت في عينيه فوجدتهما حمراوين، تمنيت أن يهبط ويظل ملتفًا حول وتد الخيمة ويكف عن عبث الصبيان، لكنه استمر يضرب بجناحيه. عندما قمتُ من نومي لم أفزع من الحُلم إنما رحتُ أفكر فيه، وكان تفسيري له أن روح هذا الثعبان تُحلق حولي، من المؤكد كان له بيتٌ هنا وأسرة، وجاء يبكي حاله وبؤسه، هل جسد الثعبان هو الذي كان بالأمس وروحه زارتني اليوم في منامي؟ بهذا يكون الثعبان ميتًا، كان شبح ثعبان إذن، عفريت!

المهم أنه ميت؛ الموت من حولي في كل مكان، يصحبني حتى هنا،

https://jadidpdf.com

يطاردني أينما ذهبت، يسكب في قلبي الخوف، ويرميني في دوامة التفكير في هزيمته، والتخلص منه ولو لحينٍ، يا ربي ألم أودِّع عالم المقابر وحكاياتهم؟!

الموتُ مرة أُخرى! سأقوم بإشعال النار، هي وحدها القادرة على حرق كل الهواجس التي تحبو في خاطري؛ الهواجس التي لابد أن أُوطِّن نفسي أنها ستقبض على روحي كل ليلة، جاءني صوت أذان المغرب من الراديو، بعد انتهاء الأذان أغلقته، وجلستُ أمام الخيمة وأوقدتُ النار بالقدَّاحة، ورحتُ أتأمل ألسنتها الصغيرة، وهي ترقص وتكبر تارة ثم تصغر إلى أن تهمد فأطعمها قطعًا صغيرة من الخشب فتتوهج، تدفئني وتشعرني ببعض الونس، في ليلة لن يكون فيها ثعبان ولن أسمع إلا عواء الذئاب.

سأقضي الليلة في قراءة المخطوط الذي جلبته معي، الليل طويل هنا ولن أستطيع الصبر بدون شيء يسرِّي عني، بدأت أقلب صفحاته الصفراء بعناية خشية أن يتمزق، أتذكر جيدًا يوم أن أهداه لي الأستاذ "صبري" الذي كان يأتي لزيارة قبر أبيه، ولما رآني أجلس بجوار أبي متصفحًا كتابا سألني عن تخصصي، ولما عرف أني دارسٌ للتاريخ، قال لي سأهديك عدة مخطوطات تاريخية كانت ملك أبي، لكن عندي شرط؛ كان شرطه أن أتعهد أنا أو أبي قراءة الفاتحة يوميًا لأبيه وسَقي الزرع والصبار النابت حول القبر، كان يفكر في السفر كما أخبرني، طالت

https://jadidpdf.com

جلسته مع أبي وعمي "مِصدَّق"، كان رجلا ودودًا في حدود الأربعين، يعمل موظفًا في هيئة الآثار، كاتبًا تقريبًا فلم يتخرج في جامعة ويبدو أن تعليمه كان متوسطًا، حتى ثقافته كانت محدودة، بالكاد كان يخبرني عن أسماء المخطوطات التي كان يجلبها لي، وكثيرًا ما كان يخطئ في ذكر أسمائها، دلّني أيضًا هذا الرجل على المعبد وعرفني بعم "نجاتي" الذي نفَّذ وصية الرجل في إخباري كل شيء يخص المعبد وأسراره، أشياء كثيرة لم أجدها في الكتب، كان يعرفها "نجاتي" أخذ الرجل يتردد على القرافة، ثم اختفى فجأة ولم أدر أين سافر؟ ربما يكون قد طار وراء قلبه الذي تعلق يومًا بفتاة المعبد، لم يكن مثلي، هو جرى وراء حُلمه، أما أنا فكان الحلم يجري ورائي، حتى دفعني إلى هنا، يااااه، لم يكن حلمًا بل حقيقة، الأستاذ "صبري" هو نفسه الذي دفعني إلى هنا، بمخطوطه العجيب، يُخيل إليَّ الآن أنه عاش الدوَّامة نفسها، ربما دفع بالمخطوط إليَّ ليتخلص من المتاهة التي وقع فيها ووقعت أنا أيضًا أو ربما لا يعلم أساسًا ما بالمخطوطات ولا ما في ذلك المخطوط بالذات، المهم أنه غادر دون وداع، عذرته وعذره أبي فقد كان- كما عرفت منه- لا يحب الوداع، دمعه قريب من عينيه، طوى صفحة حياته من بيننا، وتركنا مخلفًا وصيةً ومخطوطاتٍ، جعلتني أكرر قراءة الفاتحة أكثر من مرة على رُوح أبيه.

ربما جاءه هاتف حثه على الرحيل، ربما جاب الصحراء مثلي أو يكون

https://jadidpdf.com

هو صاحب الخيمة التي وجدتها هنا، أو يكون هو الطائر الوحيد الذي عاش وحيدًا ثم مات، أيكون هو ذلك الثعبان الذي آنسني في ليلة وذهب؟ ضحكت في نفسي، صحيح هو يشبه الثعبان، صادقني وقتا قصيرا ثم غادر دون وداع، لكن الرجل لم يزرني في المنام مثلما فعل الثعبان وحلَّق فوق خيمتي، الثعبان كان أكثر وفاء منه، ربما سيمرُّ من هنا ملفوفًا بخرق كما المجاذيب، أو كعابر سبيل جاء يشرب ويغتسل من البئر، سأفرح بلقياه، وسيفرح هو، بالتأكيد لن يغادرني، سنجوب الصحراء بحثًا عن الشجرة، أو نحمل معًا تلك الخيمة التي لن أستطيع حملها بمفردي ونجوب الصحراء، ثم نعود إلى البئر، قضيتُ الليلة في التفكير في صاحب المخطوط بدلا من المخطوط نفسه؛ الخيال مريح ومسلٍ، لا يقفر مثل النفس التي لا تجد من يرويها فتذبل وتشيخ.

https://jadidpdf.com

وكان لابد لنار المعرفة أن تسري عبر عروق الزمن الممتد لتصل بين شريان "بروموثيوس" إلى آخر جديد يتحمل الآلام من أجل سعادة البشرية، وكان الصابرون قلة، ولم يذكر لنا التاريخ أحدا منهم، ولكن من تسمَّعنا أخبارهم كانوا كأصابع اليد الواحدة، ومنهم صبري صاحب الذكر في سفر الأحزان هذا.

https://jadidpdf.com

حكاية الأستاذ صبري

جاء ليلا، طرق بابَ الحجرة، طرقات عنيفة، كاد يخلع الباب لما تأخر "أبو نوح" في الاستيقاظ، قام منتفضًا فتح الباب، وجد شابًا يلهث، سأله وهو يلفظ كلماته متقطعة "أنت حارس المقبرة؟"، ولمَّا لم يرد عليه أبي، ازداد غضبه "تعالَ معي، وافتح المقبرة اللي دفنتم فيها أبويا"

كانت الحجرة التي خرج منها "أبو نوح" خارج حدود سور المقابر، ملاصقة للباب الحديدي المغلق دائما إلا وقت الدفن أو الزيارة.

حاول "أبو نوح" أن يفهم ما يريد لكن الرجل كان مُصرًا على فتح المقبرة وإخراج جثة أبيه، جلس "أبو نوح" على الصخرة الصغيرة التي بجوار زير الماء، كان الليل شديد الظلمة ومصباح عامود الكهرباء منطفئا، منذ أن صَوَّبَ تجاهه صبي أحمق حجرًا صغيرا، جاءت رميته صائبة انفجر المصباح وتناثرت أجزاؤه في كل ناحية ومضى يرمح سعيدًا بما فعل تلاحقه لعنات "مِصدَّق" وسبابه.

بالكاد رأى الرجل على ضوء الأنوار الآتية من بعيد، حكَّ ذقنه النابتة

https://jadidpdf.com

ودعك عينيه، ناده "يا ولدي استهدِ بالله، أبوك بين يدي الله يُحاسب ادع له بالمغفرة، وبلاش الكلام ده" احتدَّ الرجل في كلامه: "أبويا وأنا حر، أريد تنفيذ وصيته "، "طيب انتظر حتى يأتي الصباح."

ظن "أبو نوح" أن الرجل ملتاثٌ لفقد أبيه، لم يرد أن ينهره لإيقاظه ليلا وطلبه إخراج جثة أبيه.

كوَّر الرجل قبضة يده وكاد يلطم وجه "أبو نوح" لولا أنه تفادى الضربة، وولى هاربًا ودخل حجرته، انتظر لحظات حتى سكت الغضب قليلا عن الرجل، أول مرة يمر عليه هذا الموقف، ماذا يريد هذا الرجل بجثة أبيه؟ وكيف له أن ينبش قبرًا طريًا به جسد يَمثُل الآن أمام الملائكة، أمسك بالفأس الذي يستخدمه "الحفار" في حفر القبور وإزالة الطوب الأخضر المتماسك بالطين، خرج متحفزًا لموجهة ذلك الرجل، لكنه لم يره ورأى نورا قادمًا من داخل المقابر، بدأ القلق يسري في قلبه، ماذا يحدث بالضبط؟

كان "نوح" نائما في البيت الذي لا يبعد كثيرًا عن المقابر مع أمه، نومه دائما في حجرة صغيرة بالدور الأول، وبها سرير يتسع لشخص واحد، وطاولة عليها بعض كتبه، كنبة مفروش عليها كِليم قديم متآكل الحواف، في منتصفه رقعتان، واحدة حمراء وُضعت لتداري حرقًا أكل جزءا منه، والرقعة الأخرى مثبتة على فتق متسع، خِيطت الرقعتان بإحكام، لكن لم يراع لون الترقيع فلم يكن متوافقا مع لون الكليم

https://jadidpdf.com

الممزوج بين البني والأبيض المتسخ والذي حال لونه إلى السواد.

يا "نوح" .. يا "نوح"، أخذ الأب يزعق و ينادي عليه، نهضَ من فراشه وخرجَ له، سحبه من يده فلم يفهم، سبقه وهو يقول:

- اجرِ ورائي، مصيبة، مصيبة يا ولدي.

وصلا المقبرة، كان "نوح" قد استيقظ تماما توقعَ أنَّ شيئا خطيرا قد حدث، ولم يتمكن من الاستفسار من أبيه الذي جري لاهثًا، من بين سياج باب المقابر شاهدا ألسنة دخان تتصاعد للسماء، وضوء أحمر ينتشر، دخل الأب حجرته وجاء بسلسلة المفاتيح وقام بفتح الباب المسيَّج بالحديد، جريًا صوبَ النار، وجدا الرجل الذي حاول ضرب "أبو نوح" يسكب البنزين فوق أحد القبور ليُزيد النار اشتعالا، لم يبالِ بخيوط النار التي طالت ملابسه فأحرقتها، ولسعتْ أطرافه، في يد "أبو نوح" الفأس، شدَّ عليه ونظر لـ "نوح"، وبدأ ينبش فتحة القبر بيديه، لم يفهم "نوح" ما يجري ولم يسأل وطفق يرجم الرجل بكل ما تجده يداه من حجارة، كانت الحجارة تصدم ظهره فيتألم، يطلق صرخة ويواصل الحفر، لما رآه الأب ألقى بالفأس ورأى أن الحجارة أرحم من الفأس الذي حتمًا سيودي بحياته إن استخدمه لإبعاده عن القبر، أخذا يرجمانه بالحجارة ولا يتحرك، اشتدّا عليه، زاد القذف بشدة، لم يتحمل، جرى ناحية السور وهو يترنح، الدماء تنزف من رأسه، وسواد الدخان يلطخ وجهه وملابسه، تسلق السور بخفة غريبة لا

https://jadidpdf.com

تليق بجريح مثله كأنه معتاد على تسلق الأسوار في هذه الظروف، وقف على السور واجههما بوجه مُعفَّر، ورأسه تنز خيوطا من الدماء، صرخ بكل ما يملك من قوة" سأعود لأُنفِّذ وصية أبي".

لم يلتفتا كثيرًا لكل ما قاله، قاما بحمل التراب في حِجري جلبابيهما، ورميه علي النار وبيدي "نوح" أخذَ يَغرف التراب ويُلقيه، لما هدأت النار واستطاع أن يقترب أكثر، لم تبق إلا خيوط الدخان المكتومة تتسلل راسمة ضبابا كثيفا في الجو.

أغلقا الباب الحديدي، جلس "نوح" على الأرض أمام الزير وجلس أبوه على الصخرة وكانا مُتعبين، قال لأبيه هيا بنا نذهب للمنزل، تُبدل ملابسك المُعفرة بالتراب والهباب والوسخ، رفض أبوه لخوفه أن يعود مرة أخرى ليكرر فعلته.

كانت رأس "نوح" تدور وتفكر في إقامة أبيه الدائمة في هذه الحجرة القائمة على حدود الموت والحياة، يراقب الموتى الذين لا يمرون إلى الدار الآخرة إلا من خلاله، يسمع وقع أقدام مُشيعيهم وصراخ ذويهم، اللحظة الأخيرة مقرُّها هنا، في حجرة طينية، سكنها أبوه منذ زمن تاركًا لهم البيت.

سيدور في ذهن "نوح" هذا السؤال" يا أبي من ذلك الرجل؟، وما الوصية التي تحدث عنها؟"

https://jadidpdf.com

وسيرد الأب مطمئنا ابنه" اذهب للبيت طمئنهم علينا"

منذ تلك اللحظة وسكن الفزع عيني الأب، حمل السر وحده ولم يبح به لأحد رغم إلحاح "نوح" عليه أن يبوح به، اسكت يا "نوح"، كررها كثيرًا كلما حدثه في شأن ذلك الرجل الذي أشعل النار في القبر.

https://jadidpdf.com

النورُ ينتقلُ من نفسٍ لنفسٍ.

https://jadidpdf.com

المَعرفةُ يا نُــوحُ

وفي المكان الذي سكنت نفس "نوح" فيه أول مرة يذهب فيها إلى المعبد جاءه الخفير "نجاتي"، أخبره أن الساعة قاربت على الخامسة، وهي ميعاد غلق المعبد، وهما خارجان كان المساء قد بدأ يتسلل للمعبد وظلمة الظلال تسكن الدهاليز المفضية لدهاليز أخرى، مضت ربع ساعة في مشيهما البطيء وارتاحت نفسه لحديثهما وتلقائيتهما وبدا أنه يصدقه في كل ما يقول ويؤمِّن عليه، كان هناك عامل يقوم بحَثِّ بعض الشباب الذين جاءوا متأخرين على مغادرة المعبد ولما وصلا لمدخل المعبد وبجوار كشك قطع التذاكر سأله: "من طلعة النهار وأنت في المعبد، السياح يأتون ويذهبون ويتبادلون الصور، وأنت جالس في مكانك"، "هل ضايقك وجودي؟"

يضحك الخفير "هو أنت قاعد في بيت أبويا، لكن حبيت أسأل يا ولدي."

"لا شيء ياعم الحاج أنا تعودت على المكان وفرصة للتأمل بعيدا عن

https://jadidpdf.com

ضجيج الناس، الرِّجْل هنا خفيفة والأجانب ناس متحضرون يتكلمون بهمس ويمشون على مهلهم، لا صخب ولا زعيق يستمتعون بكل شيء."

ضحك الخفير بعدما بدا أن كلامه كبيرا على فهمه. في ذلك الوقت رأى "نوح" الأستاذ "صبري" يدخل المعبد، كان يكلم بعض النساء الواقفات يستفسرن منه عن شيء، من كلامه معهن وانسجامه في الحديث عرفَ أن صلته بهن قوية، خاصة الفتاة الشقراء، طبيعة عمله تجعل له علاقات مع كثير من زوار المعبد أجانب ومصريين.

استدارت سيارة صغيرة مخصصة لنقل السياح لتركن في مكان وقوف السيارات ونزلت امرأة شابة وأخذت تهرول قادمة نحوهما ثم وجهت كلامها لـ "نجاتي" الخفير الذي بدا أنها تعرفه "لو سمحت يا حاج، الكاميرا نسيتها في المعبد ممكن أجيبها"، الليل ليَّل يا أستاذة الصبح إن شاء الله ندور لك عليها"، "يا حاج أنا مسافرة الأقصر مع الفوج السياحي والكاميرا فيها حاجات مهمة"

تدخَّل "نوح" في الحوار "المعبد أُغلق ولا يمكن دخوله الآن، سنبحث عنها في الصباح وسنرسلها لك"

أعجبتها لغته الفصحى- رغم قلة كلامه - وطريقة نطقه للكلمات ومخارج حروفه، استحسنت فكرته وأخرجت من حقيبتها ورقة وبقلم حبر كتبت بالإنجليزية اسم الفندق في الأقصر وبجواره رقم هاتفها

https://jadidpdf.com

وناولتها له، التقط الورقة ونظر فيها وابتسم هازًا رأسه بالموافقة ثم ابتسمتْ ولوَّحت بيدها تحية شكر وسلام له، لكنها نسيت أن تكتب اسمها "حضرتك ؟"،

- "هناء".

أخرج هاتفه المحمول وسجل رقمها في هاتفه باسم "هناء الأقصر" وفي المعلومات كتب اسم الفندق.

اتفق مع الخفير أنه سيأتي غدا في الصباح ليبحثا عن الكاميرا ثم يتفقان على طريقة تصل الكاميرا لصاحبتها وقبل أن يهم بالرحيل تدخل الأستاذ "صبري":

- تعرف الست هناء يا "نوح"؟

لم يرد "نوح" الذي فوجئ بالسؤال، فرد "نجاتي": تاني أو تالت مرة تيجي يا بيه، لكن كل مرة تديني فلوس كتير، اللّه يكرمها وجهها سمح"

سمع "نوح" كلمة وجهها واهتزت رموشه في اختلاج وتذكر نظرتها، كان دائما على موعد مع الوجوه الجميلة وتساءل وهو يغادر المعبد تحت أضواء الشارع الخافتة "لماذا يطاردنا الجمال أينما ذهبنا؟"

ونطق الساكن بداخله:

"لنُشغل عن الجمال الحقيقي الدائم. يا رب هل خلقت الجمال

https://jadidpdf.com

لتعذبنا به؟"

وجاءه الصمت من عمق غائر في نفسه، وجاوبته حيرة منْ لم يجد جوابًا لما يصطرع في داخله من أسئلة، لكن ذكرى المرشدة السياحية "هناء" جعلت سُحب تفكيره تنقشع لترسم بسمة خفيفة رف لها قلبه، لكنها فرحة ممزوجة بحيرة غريبة، لم يُسلم نفسه لحبال التفكير تخنق البسمة التي تولدت، وتود أن تموت، عاد للمنزل وأطلق عينه في الكتب التي تتكلم عن المعبد، أخرجها من الحقيبة ووضعها بجوار بعض الورقات التي كتبها، وهو في المعبد طيلة النهار، كان همه أن يمزج بين ما يقرأ ويحسه، وهو يعايش المكان هناك، ارتفاع الشمس وانكسارها، حدتها ورقتها، ارتسام الظلال على الجدران الخارجية للمعبد، ونسمات ما قبل الغروب والرمال الساخنة التي تمس يده، وهو يتحسسها ويستعذب نعومتها ودفئها، لم يسجل إلا بضعة أسطر في كل صفحة بخط غير واضح وبعض الرسومات غير المنسقة، كان الليل يوغل في الظلام والنافذة ترسل رياح الخريف المارقة من بين النخيل والزروع المتاخمة لمنزلة، قام فأغلق النافذة تاركًا أحد ضلفتيها مواربا حتى تتسلل بعض النسمات لترطب جوَّ الغرفة.

في الصباح، وفي حوالي ساعة قضاها مع الأستاذ "صبري"، كانت الصداقة بينهما تسمح بأن يسأله "نوح" في حياء إن كانت له علاقة بهناء، أجابه "صبري" بأن قصة حب جمعت قلبيهما، لكن الحب فتر مع

https://jadidpdf.com

الأيام، أخبره أيضا أنه سيقوم بالذهاب للأقصر لإعطائها الكاميرا، فرصة جيدة، لإعادة المياه لمجاريها، ترك "نوح" المقهى بعدما أعطى النادل حسابه، وترك "صبري" وحده، عبر الشارع وارتقى الرصيف، سار في ظل الأشجار وفي رأسه تدور الأفكار "كان من المفترض أن يذهب للمعبد الآن ويحضر كاميرا المرشدة السياحية و.....

شغله جمالها وفكَّر فيها طول الليل، كان في حاجة إلى امرأة، أو إلى حب يقصف بحب "أسماء"، نفض عن رأسه تلك الأفكار عندما داهمته أسراب الفتيات المرتديات الرداء الكحلي الخارجات من المدرسة، ابتعد عنهن كي يتمكن من الرؤية، أحدَّ البصر حتى وقعت عيناه عليها وهي تتضاحك وسط صاحباتها، السترة الكحلية الملتفة حول جسد ليس نحيفا ولا ممتلئًا، محبوكة بعناية لتظهر تناسق الجسد الميَّاس، على الرأس تلتف طرحة بيضاء ويظهر الوجه وهَّاجا بالبياض، تخطر ساقاها في بنطال، وفي القدمين يسكن حذاء مطاطي، لونه رمادي، ذابت وسط الألوان الكحلية. هل هذه حقا أخت "أسماء" الصغيرة؟

آه هل تعيد المأساة مرة أخرى؟ مرة مع "أسماء" ومرة مع .... ترى ماذا يكون اسمها؟، الوجه نفسه هو الوجه والابتسامة نفسها، واصطفاف الأسنان في تناسق، ملامحها ليست غريبة عنها كأنها هي، لكنها تجهله ولن تلتفت له إلا على أنه شاب ثلاثيني يطارد بنظراته الخجلى بنات صغيرات خارجات من مدارسهن.

https://jadidpdf.com

يحكي "صبري" لـ "نوح" كيف تم دفن أبيه، من غير رؤيته، وكيف تنكد له الحظ، وأدارت الدنيا له ظهرها، بعدما طلق "هناء"، سيقول له "نوح" : "على هذا فأنت تزوجتها، لم تقف العلاقة عند حدود الحب فقط"، يتعجب "نوح" وهو يرشف الشاي هل تزوجت "هناء" لتطلقها.

"تزوجتها وطلقتها بعد مأساة أبي"

كانت عينا "نوح" تتوسل إليه أن يحكي عن تلك المأساة التي تجعل ابنا يحرق قبر أبيه، ينظر بعيدا ثم يحكي في حزن حكاية تُذكِّر "نوح" بما حدث يوما ولن ينساه.

كان خلف النعش يسير عشرة رجال لا يزيدون عن ذلك، ببدل أنيقة، تنتظرهم سيارة فارهة، رابطات العنق تكاد تخنقهم، جاء شيخ معمم يشع النور من وجهه، حليق الوجه، قرأ بصوت ندي بضع آيات ثم ذهب مع المشيعين بعدما واروا صاحبهم في جوف قبره، دس شاب كان يتبعهم ومعه حقيبة سوداء نقودا في يدي اللحَّاد، وطبق ورقة وأعطاها لوالد "نوح"، وكيس بلاستيكي، دارت محركات السيارة، أثارت الغبار والتمَّ الجمع واختفى وسط عاصفة الغبار.

هتف "أبو عزيز" :

- كأنهم تخلصوا منه وارتاحوا.

- الجماعة دول لا يعرفون الحزن.

https://jadidpdf.com

- الحزن للفقراء بس.

- شوف إيه اللي في الكيس.

- إيه؟

- مجموعة من المصاحف.

- صدق اللي قال "لا يسير في جنازتك إلا اللي يحبك"

- أهم أدوا الواجب وعملوا اللي عليهم.

سيُحدث "صبري" "نوح" عن المخطوط الذي طارد الأب ودفع به إلى الابن، الذي توهم أنه دُفن معه، المخطوط سيصير مآله إلى "نوح"، هذا ما أخبره به "صبري".

سيأتي بعد أيام رجل يثور في وجه "أبو نوح" ويسائله كيف تم دفن أباه، يهدئه "أبو نوح" ويقول له: "كل حي سيدفن يا بني، اهدأ"، يلطم الشاب الحائط بكفه، ويذهب وعيناه تطق شرارا.

"بمدفن أبي صبري، تتوارى لعنة المخطوط."

يحكي "أبو نوح" لـ "مِصدَّق"، ويقول له: "هذا الشاب غُدر به، سمعتُ حكايته، يقيم في بلد بعيد ويبدو أن أباه حرمه من الميراث، هكذا قالوا، الناس تحكي كأنها تملك مفاتيح الحقيقة، الرجل لم يعش بيننا أبدا، تذكره أهله لما مات وجلبوه إلى هنا ببدلهم الأنيقة بكل حفاوة

https://jadidpdf.com

ليرتاحوا ويريحوه."

"أبو نوح، لم يصل لسر المخطوط وانتقاله عبر الأزمان، اللعنة في القبر، وترياق صبري، نوح، وعذابهما قريب بعيد لمن يعي"

عاد الشاب إلى العاصمة، اتجه إلى الفندق الذي يقيم فيه، صعد الـدَّرَجَ، طرق باب الجناح الذي حجزه مع زوجته، واجهته بعينين ملأهما النعاس، كانت مستيقظة لتوها، نقر باب الحجرة كأنه يستأذن ، وضع كفيه على وجهها، قال لها ارفعي سترتك لأعلى، رفعتها دهشة، رأى بياضًا مشوبًا بُحمرة، دسَّ أنفه في بطنها، رجرج رأسه، حركها كأنما يريد أن يدفن رأسه في رمال بطنها، سالت دموعه حول سرتها، قبض على خصرها، وأسبلت عيناه كل ما فيهما من دمع، آوى إلى سرير حضنها وحكى لها فلم تفهم أو تعي ما يقصد، لكنها ظلت تستمع له."

لضم "نوح" الحكايتين، مع حكاية ثالثة يتداولها أهل القرية، عن الذي يترك قريته ويتزوج من امرأة غريبة، يستحق ما حدث له ولأبيه، هذا إن كان صادقا في الأساس، وكان كل ذلك تخرصات لا فائدة منها.

لم يدر "نوح" بعدما ترك "صبري" على المقهى، هل أخذ الكاميرا وسافر إلى الأقصر وتقابل مع "هناء" وأعادها مرة أخرى زوجة له؟، سأل عنه في مقر عمله أخبروه أنه أخذ إجازة بدون راتب، لم يجد جوابا عند "نجاتي" الخفير الذي قال له: "إن الأستاذ "صبري" حاله متقلب،

https://jadidpdf.com

ولولا عزوة عائلته في القرية لقتلناه، كيف يحرق قبر أبيه؟!، لولاك أنت وأبوك لأحرق جميع الموتى، الرجل أعصابه تعبانه، أو مريض نفسيًا."

"نوح" كان يعرف مأساة "صبري"، المخطوط هو الذي دفعه لكل ذلك، لكنه قرأ المخطوط كثيرا ولم يجد فيه شيئا يدفعه لفعل ما فعل، أصيب "نوح" نفسه بلعنة من هذا المخطوط لكن ما حدث له مختلف تماما عما حدث لـ "صبري"، لا أحد يعرف هذا السر غير "نوح"، اختفاء "صبري" زاد من عظم السر، ووضعه في مأساة ومتاهة لم يستطع التخلص من فخاخها.

https://jadidpdf.com

اللعنة تقترب يا نوح

بدت حياة "نوح" مقسمة بين المعبد والمقابر بجوار أبيه ثم التأمل في وجه الأب العجوز الذي غزت الأخاديد وجهه، وغار بريق عينيه وغلفتهما طبقة من الضباب الشفيف، يغرس "كنكة" سوداء في جمرات مشتعلة يلقي الشاي على الماء قبل غليانه ثم يبدأ برفعها وتحريكها ثم يُسكنها مرة أخرى الجمرات، يفور الشاي ويعلو الزبد الأصفر ويختلط بتفل الشاي، يرفع "الكنكة"، يصبه في كوبه الخاص، كوب قديم زجاجي منقوش عليه ورد أحمر يبرق الكوب كلما دعكه بسلك الماعون المغمور بالمُنظف ثم يُخرج من قلب النار المشتعلة قطعتين من الفحم المتوهج ويضعهما أعلى حجر "الجوزة" المملوء بالمعسل، يضع عود الغاب بين شفتيه ويبدأ في سحب الدخان الذي يصعد رامحا نحو فمه منسكبًا في صدره، ينفخ زفرات الدخان في هدوء مستمعًا لقرقرة الماء في القارورة النحاسية المغروسة في التراب كي لا تسقط من بين يديه.

https://jadidpdf.com

غرس "نوح" نظرته في الفحم المتقد وتحركت أنامله فأغلقت عينيه أحس أن قلبه مشتعل مثل جمرات الفحم، النار تأكل أحشاءه، تساءل في حيرة متى تغادره حُرقة روحه؟ أبوه صامت أغلب الوقت لا يتكلم إلا إذا جاء صديقه "مِصدَّق"، هل أسرَّ أبوه بسرٍّ الرجل الذي أشعل المقبرة؟، لماذا تبدو ملامح أبيه ساكنة لا حراك فيها، كأنه يستمرئ فرشاة الزمن التي تعبث بقسمات وجهه؟ يتأمل الأخاديد التي تزداد عمقا وتموجا، العظام التي تبرز مُخبِّئة اللحم تحتها، يسعل بحرقة ثم يبصق مخاطا تخترقه خيوط دماء رفيعة.

يسحب الأب نَفَسا بعد آخر منتظرًا مجيء "مِصدَّق"، يقوم بفتح باب القرافة الرئيسي تحسبًا لمجيء أحد للزيارة في غير موعدها، وهو غالبا ما يكون يوم الخميس، يتلقى في ذلك اليوم هِبات كثيرة يتعيش عليها هو وأسرته، زيارات من أناس أثرياء، يقوم بإرسالها إلى البيت مع "نوح"، أحيانا يعطيه أحد الزائرين نقودًا، يقبلها بارتياح، يهتم بالمرور على الفساقي، يقوم بسقي الصبار المزروع بجوارها، يمسح التراب العالق من على الشواهد، يحب الناس أن يروا شواهد قبور موتاهم واضحة، تبدو الآيات القرآنية جلية، محفورة في الرخام بعناية ودقة، اسم الميت واسم العائلة تحته تاريخ الوفاة، ، بعض الشواهد مكتوبة بخط اليد، يستوقفه دائمًا شاهد القبر المكتوب منذ زمن عليه " كل من عليها فان"، قبر قديم لم يُفتح منذ مجيئه إلى هنا، تقريبا من خمسين عاما أو يزيد، بحث كثيرا عن اسم لصاحب هذا القبر فلم

https://jadidpdf.com

يجد، دقق النظر في الشاهد، ربما يكون مكتوبا بخط رفيع غير واضح أو بهت مع الزمن، لكن لا شيء غير هذه الآية، لم يزر هذا القبر أحد أبدا حتى الذين يأتون لزيارة القبر المجاور له، والذي لا يبعد أكثر من ثلاثة أمتار لا يعرفون من أصحاب القبر، قالوا له إنهم يدفنون موتاهم ويأتون لزيارة القبر، لكن لم يروا ولا مرة واحدة شخصا يقرأ الفاتحة أو يقف متأملا أو باكيا، ورغم توالي السنين التي ربما تزيد عن عمر "أبو نوح" نفسه إلا أن الكتابة المكتوبة بطلاء الحوائط الأزرق لم تنمح، كان "أبو نوح"، وهو يمر عليه يقرأ له الفاتحة، يعرف أن ساكنيه نُسُوا، ولم يعد يتذكرهم أحد، بالتأكيد قد ملوا الانتظار، وأكلهم الحنين والوحشة، يشتاقون لأنيس، مرةً قرَّب فمه من فوهة القبر المبني بالطوب اللبن، والمهدمة حوافه، ردد آيات سورة الفاتحة، وضع أذنه على سطح القبر، أصغي جيدا كي يسمع أنينًا أو تأوهًا، ربما نداء يخرق الحجب ويصل لأذنيه يخبره بشخص يشتاق أصحاب القبر لزيارته، كررها كثيرا لكن لا جدوى، يبدو أن الموتى أصابهم الخرس، ليس كلهم، فكثيرا ما سمع صراخا في جنح الليل يأتي منبعثًا من جوف قبر، كأن امرأة تصرخ منادية طفلها، كانت كل ليلة تصرخ وتنادي حتى أقلقته، فلم ينم، مرت الأيام إلى أن أتى "أبو ضيف حسانين" يخبره بأنه سيفتح القبر الذي دفنوا فيه المرأة منذ أيام، ولما سأله عن السبب أجاب على الفور ببرود "مات طفلها الرضيع وهندفنه بجوار أمه". منذ

https://jadidpdf.com

أن سكن الطفل بجوار أمه غاب الصراخ، حلَّ هدوء موحش، لم يتمكن من النوم في أول ليلة من غياب الصوت، كأنه استأنس الصوت أو أنه كان ينتظره، في الليلة التالية، نام وهو يفكر في الأم، يتخيلها وهي تضم ابنها فَرحة به.

بمنديله القُماشي راح يمسح عينيه التي يسح منهما ماء رقيق، يشعر بعدها بحرقة في جفنه، بمرور الأيام وإهماله لعينيه أصبحتا تلمعان كزجاج يعكس ضوءًا مُسلطًا عليه، لم يستمع لنصيحة صديقه وابنه اللذين أصرا على اصطحابه إلى الطبيب، كررا وألحا كثيرا، كان رده أنه ليس بحاجة إلى النظر كثيرًا هو لن يذاكر أو "يلضم الإبرة"، قالها وهو يضحك، لكن حرقة عينيه كانت تؤلمه فيقطر قطرتين في جفنيه من تلك القطرة التي جلبها له "نوح"، تهدأ الحرقة ويحس بالراحة، يتجنب حَكّ عينيه بيده الملوثة دائما بالتراب، والوسخ الساكن في أظافره.

في يوم الجمعة استيقظ "نوح" من نومه مبكرًا، كان قد تعود على الاستيقاظ في ذلك الوقت مضى أغلب الوقت في البيت، لم يخرج إلا ليحمل الفطور لأبيه في القرافة ثم عاد، لم يستطع أن ينظر في الكتاب، كان يقلبه في حين كان عقله يجلب له مئات الصور التي تعذبه، رآها وهي تنظر إليه ثم تغض طرفها لما نظر إليها، بدأت صورتها تلك تذهب وتجيء وكلما جاءت أحس باشتعال النار كأنها تنفث فيها فتتقد،

https://jadidpdf.com

وكاد يصرخ من الألم الذي ينحر روحه.

ما من أحدٍ يشكو له ما يعانيه، كتم سره في باطنه، دفنه وأهال عليه التراب وتحمل العذاب وحده.

قبل صلاة الجمعة ذهب للمسجد استمع للإمام والصور تترى أمامه.

"جريد النخيل يرقص، أغصان الأشجار وأوراقها تتمايل مُسبحة لله، الكل يدور، يُطوِّح رأسه والله يتجلى على قلوب العباد، لكنها تأبى الخضوع وتنكر الذين ينسحقون تحت رحمته- سبحانه- فتتمايل رؤوسهم وتنحني جباههم ويلهجون بالذكر وترديد الأوراد."

سمع من الإمام كلاما كثيرا، ولم يسمع منه إلا القليل، غادر المسجد ولم يجد أمامه إلا حضرة الذكر التي تقام بعد الصلاة كل يوم جمعة، جلس في الحلقة والتقط كتاب الأذكار وشعر بالارتباك، كان عقله مُشتتًا وقلبه يعزف بعنف دقات موجعة، بدأت الأذكار وبدأ يردد، الصوت يعلو ويعلو، غرق في لُجة الذكر، ونسي مع الوقت همومه، ولم يلتفت إلا ورجل يسحب منه كتيب الأذكار، قام الرجال، شبكوا أيديهم، وظلوا متحلقين، يهزون جذوعهم، وهم يرددون المدائح ثم بدأ التمايل، وأخذت تندلق من صدره المكبوس بالهموم زفرات الحرقة والألم، كاد يبكي لولا أنه لم يرد أن يُطلع أحدًا على سر قلبه، تزايد التمايل، الأصوات تخفت حتى جلسوا وبدأ رجل بتوزيع الحلوى على

https://jadidpdf.com

المتحلقين ثم انتهى الذكر وبدأت الدائرة بتقبيل يد الشيخ ثم التسليم ومحاولة تقبيل يد بعضهم البعض، وخرج من المسجد بعدما صافح الجميع وداهمته الرياح التي تحمل الأتربة، الخريف يقظ ويطلق آهاته في وجهه، سلك الطريق المؤدي إلى القرافة، وكان بعض الزائرين عائدين يجرون سيقانهم والهواء يخبط جلابيبهم، ووصل إلى حيث يجلس أبوه ورأى امرأة شابة تتشح بالسواد خارجة من الباب الحديدي وبين يديها طفل رضيع يصرخ بشدة، وكان اسمها غادة.

https://jadidpdf.com

حكاية بنت اسمها غادة

اختفت فجأة بعدما ذهبت إلى المدينة هي وصديقة لها لشراء بعض الأشياء، عادت الصديقة بدون "غادة"، التي انتظرتها عند محل الملابس الذي اعتادتا -غالبًا- شراء ملابسهما منه كلما ذهبتا للمدينة، قالت "غادة" إنها ستذهب لتشرب كوب ماء من الزير القريب، غابت كثيرا، قلقتْ صديقتُها عليها فذهبت إليها، لم تجدها عند الزير، رجعت للمحل سألت عنها العاملين فيه، قالوا إنها لم تأت منذ غادرت، انتظرتها لوقت طويل، ثم عادت إلى القرية؛ لتخبر أباها وأمها بما حدث، انتظروا لانتهاء اليوم، ربما تعود، في اليوم الثاني، أبلغ أبوها الشرطة بغيابها، بعد يومين آخرين من الانتظار دون جدوى، اتصلتْ بأبيها امرأة أبلغته أن ابنته عندهم في الحفظ والصون وإن كان يريد رؤيتها مرة أخرى عليه أن يدفع خمسين ألف جنيه، لم يجبها "أبو غادة"، وضع سماعة الهاتف وجلس، لم يدر هل يبكي أم يضحك؟

https://jadidpdf.com

من أين يأتي بهذا المبلغ الكبير، لو كان ابنه الذي خُطف ما سأل عنه لكنها بنت، نغزته فكرة الشرف، فتعكر مزاجه، أخبر أمها فولولتْ، انتظر يوما آخر، دق جرس الهاتف فرد عليها بلهجة المستعطف، أخبرها أنه لا يملك خمسين جنيها يدفعها، أغلقت الهاتف، مر يومان آخران، تأكدت المرأة وعصابتها أن الصيد الذي حصلت عليه غير ذي جدوى، أطلقوا سراحها، جاءت "غادة" إلى بيتهم في منتصف الليل، ارتمت في حضن أبيها ، أمها أخذتها من يدها بدون سلام ولا كلام إلى الحجرة الداخلية، رفعت جيبتها المتسخة لأعلى، سحبت سروالها الداخلي لأسفل، طلت في مكان عفتها، عندما رأت جروح خفيفة على جوانب ثُقبها، تحسسته بباطن كفها، تركتها تستر عُريها، وراحت تلطم وجهها حتى تورم، دخل الأب يجري، سألها عما جرى، أجابته:

- غادة مبقتش بنت بنوت.

طأطأ الرجل رأسه في حين غادرت البنت الحجرة وخرجتْ، لم يكن يبدو عليها أنها اُغتصبت أو أكرهت على الفعل، وجهها رائق، وعجيزتها امتلأت قليلا.

فكر الأب في مداواة الخرق الذي شق ثوب شرفه، اختار شابًا أهطلَ يعمل عنده في ورشة النجارة، أخذه على انفراد، أمره أن ينزل سرواله، دَلدَلَ الشاب شفته السفلى، ونظر نظرة بلهاء، فك المعلم أزار البنطال، سحبه لأسفل ومعه السروال، بدا عضوه طويلا مرخيًا، دعكه بيده فبدأ

https://jadidpdf.com

يتمدد بين أصابعه، رفع البنطلون وقال له في هدوء:

-لِمْ هدومك.

قال الشاب وهو يداري عورته:

- خير يا مَعلم؟

- تتزوج "غادة"؟

وهو يغلق "السوستة" تحسس "علاء" عضوه وسال لعابه، في بلاهة أخذ يداري شفته السفلى المتدلية، قضمها بأسنانه العليا فظهر "ضَبُّه"، كأرنب خارج توًا من جحره، ردَّ في انفعال هائج "ومالُه"

بعد أسبوع كان كل شيء قد أُعِد، "غادة" تجهزت لتُزف لـ "علاء" الأهطل، أخبرتها أمها أنه رجل، أبوها بنفسه تأكد من ذلك، اقشعر جسد البنت وهي تتذكر لحظة الاختراق الأول، الألم الذي أعقبه لذة، لو استمرت مع المرأة لأصبحت الآن صاحبة "نمرة" كما أخبرتها، عشرون جنيهًا في الليلة غير أكلها وشربها ونومتها على حساب "المِعلمة"، لكنه في الآخر بغاء، ضنك العيش مع أبيها النجار أفضل من الاختراق اليومي الذي سيسحقها كذبابة ميتة، يُجَهز عليها كل ليلة، أثناء خطفها حدث الاختراق مرتين ومرَّ الأمر بدون "شوشرة" منها، وبهدوء غير متوقع، كأنها كانت معتادة الاعتلاء كما علقت "المِعلمة" بعد مشاهدتها الاستسلام الكامل من البنت، لما علمت المرأة وكانت هي

https://jadidpdf.com

زعيمة العصابة أن والدها فقير ويعمل نجارا على باب الله، والبنت غير راغبة في العمل معهم، ولو أرغموها ستفضحهم فور خروجها من باب الشقة، سرَّبتها في جنح الظلام، وعلى حدود قريتها أطلقتها معصوبة العينين، في المواقعة الثانية والتي كانت مع المعلمة نفسها عضَّت على شفتيها وتوسلت لها أن تبقى معهم وستذوق الشهد، انقيادها بسلاسة واسترخاء في المرة الأولى، واستجابتها للمِعلمة جعلهم يظنون أنها بنت حرام، وتصلح للعمل معهم؛ لكن المعلمة بنظرة محترفة عرفت أن البنت، آخرها "رُكبة"، وليس لها في الاحتراف والبغاء.

https://jadidpdf.com

العشقُ يا نوح

أتراك أحببت "أميرة" من قبل؟ هل رق قلبك بعدها لـ "هُدى"؟ وشُغلت لياليَ بغيرها، كل واحدة تأتي، تضع بصمتها على قلبك ثم ترحل وكأنها لم تكن ألما ولا عذابا ولا وجعا، دفنت كل تلك القصص كما يَدفن الأحياءُ الموتى ثم ينسونهم في قبورهم، من بين تلك الزهور التي وضعتها على قبور قصصهم نبتت زهرة اسمها "أسماء"، هل أحببت "أسماء" يا "نوح"؟ وأين ذهبت الزهرات القديمة؟ لماذا كل امرأة تأتي فتطمر من سبقها وتهيل على قصتها التراب؟ هل ذقت عذابا مثلما ذقته مع "أسماء"؟

و"أسماء" نافذة على النور الذي ملأ قلب "نوح" منذ رآها، تخطو فيخفق قلبه، وتنكسر نظرتها عندما تتقابل مع نظرته، غزت قلبه وراح يأرق ليله كله، وصورتها ملتصقة بأجفانه، وابتسامتها تطارده أنَّى ذهب، وراح "نوح" يبحث عن ملجأ من عينيها.

https://jadidpdf.com

ولأسماء عينان عسليتان أنجبتا دمعتين يوم أن أخطأها الحظ فدخلت كلية الصيدلة بدلا من كلية الطب التي عاشت تحلم بها، وأنفقت الأوقات في المذاكرة والاجتهاد، في حين كان "نوح" يتخبط في مجموع لا هو ضئيل ولا هو كبير، أنكرته كليات القمة، وتأكد له بعده الأزلي عن محيط عينيها.

ويوم رآها بعدما انقطع عن رؤيتها أشهرا عديدة، نبشت نظرتُها قلبه وكان قد تسلى عنها، أخذ ينخر الحزن في قلبه وبدا كالغائب عن الوعي، وسهر في تلك الليلة وأسبل دموعه حتى ابتلت الوسادة، وفي الصباح واجهته أمه دامعة وجمعت جسده بينَ ذراعيها "يا "نوح" مزقت قلوبنا وأنت تعوي طوال الليل"، أنكر كلامها فلم يتذكر أي شيء مما قالته، كانت تداهمه كوابيس مزعجة طوال الليل فيفر منها بالصراخ والنواح، والأم تسأل "هل هي نهاية الدنيا أن مجموعك مش كبير؟" ولم يكن يشغل بال "نوح" شيء غير إزالة الهم الذي يرعى في صدره، والنار المتسربة تأكل في أحشائه. ثم حمل "صينية" الإفطار وذهب إلى أبيه بعينين منطفئتين، افترشت طبقة من الهالات السوداء أسفل الجفنين.

أطلت الشمسُ من خلف الجبل، في استحياء تنظر ثم تبزغ رويدا رويدا وتصعد لأعلى طارحةً برقع الجبل الذي يحجبها ثم تُقصي الحياءَ تماما فتبدو وهَّاجةً جارحةً لأعين الناظرين، قُرصٌ مستدير يصبغ الكونَ بصفرةٍ رائقةٍ، تنام خيوطُها على الجدران فتهرب منعكسةً على

https://jadidpdf.com

الجدران، يفتح الكونُ أحضانه لها، يستقبلها كحبيب غابَ طويلا؛ الشمسُ توقظ كوامنَ الكونِ فيفزع منتفضًا وتبدو حركةُ الكائناتِ بعد سكون ليل طويل متثاقلة من غفوتها، صرير سيارة متهالكة تقاوم وعورة الطريق وكأنها تسير في مدق غير ممهد، تدفع نفسها مخترقة غلاف الندى الصباحي الرقراق، صوت الشيخ "محمد صديق المنشاوي" ينساب وسط جلبة هيكل السيارة فيكسر حدة الصياح المؤذي، الكون يهبُّ من رقدته، والنائمون حتما خاسرون لدفقة الضوء الصباحي الوليد، أن تخسر سماع صوت الهسيس الذي يغادر السكون فيلتئم في لُحمة المخلوقات.

الثامنة صباحا، من إذاعة القرآن الكريم تنساب تواشيح الصباح قبل إعلان إشارات ضبط الساعة، تدق الساعة فيعلن المذيع ابتداء التلاوة:

"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ"

وبينما كان الأب يتناول الإفطار أخذ "نوح" يعد "الجوزة" له، انتقى عدة قطع من الفحم ووضعهما بين أعواد الذرة "المقصَّفة" واليابسة وأشعل النار فيها وأخذ ينفخ حتى سرحت النار تسعى في قطعتي الفحم ولما نضجتا محمرتين، متوهجتين، التقطهما بالماسك ووضعهما فوق

https://jadidpdf.com

حجر "المعسَّل"، بعدما قام بتغيير ماء "الجوزة" بماء نظيف اغترفه من الزير، أطال النظر للفحم "المطقطق" فوق الحجر، نظر فلم يجد أباه أمامه، ومد يده وقرب عود الغاب من فمه وسحب الدخان بقوة، حتى احمرَّت عيناه ثم دمعتا، في ذلك اليوم الذي لم يغادر ذاكرة "نوح" رغم مرور السنوات عليه استأذن والده في الذهاب لمكتب التنسيق.

***

تُداهمُ النافذةَ رياحٌ قاسيةٌ مُشبعةٌ بالأتربةِ، تضربُ بقوةٍ، الخريفُ يَقظٌ، في نشاطٍ يُطلقُ آهاتِه في وجوهنا، تَدْهَمُنَا تقلباتُه، وتقهرُنا أنواؤه، تتسللُ لسعاتُ البردِ مارقةً بين البناياتِ فتُشعر بهلَّةِ الشتاء، والشتاء نغمةٌ حزينةٌ، ونايٌ مجروحٌ قلبُ نافخهِ يُقطّرُ على القلبِ المحزونِ قطراتِ الشجى، لياليه طويلةٌ بطول الحزنِ الناشبِ أوتاده في أروقةِ الروحِ

الحياةُ مثلما تشحذ سكين القصَّاب لنا فإنها تربت بيد الحنان علينا أحيانا، مضى "نوح" السنوات الأربعة في كلية الآداب، واختار قسم التاريخ رغم أن أحد العاملين في الإرشاد السياحي بالمعبد نصحه بدخول قسم الآثار، كانت الآثار أمام عينيه دائما يمعن النظر إليها لساعات طوال وامتدت رحلاته جنوبا وشمالا وطالع الكثير من الكتب التي أعطاها له المرشد السياحي، أحبت عينه الحجر بينما راح عقله يمرح بين صفحات كتب التاريخ، ويوم أن انتهى من قراءة "موسوعة

https://jadidpdf.com

مصر القديمة لسليم حسن" قال لنفسه أنا الآن أتفوق على "أسماء" أو أُقاربها في الدرجة العلمية، هل يمكن أن تتزوج "أسماء" "نوح" ابن حارس القرافة؟! هل ترتبط بشخص يعيش في الماضي في حين أنَّ المستقبل لن يخرج عن مدرس تاريخ، بالليل يقرأ للجبرتي وفي الصباح يعلم الصبية مبادئ التاريخ المغلوط.

طعنت "أسماء" قلبه فانفجرت كتلة من الدم، وظل القلب ينزف حتى تجلط الدمُ، تكونت طبقة من الدماء المتجمدة وسَدَّت مدخل القلب فلم تدخل فتاة أخرى، سنوات الجامعة قضاها دون أن تجرح نظرةُ فتاةٍ قلبه، كان محصنا ضد الحب، يحس بثقل في قلبه كأنَّ ضريحًا للحب بُنى فيه أما عيناه فكانتا مأتمَ حزنٍ وضلوعه مندبة للأوجاع.

ويومًا فرّج بين أصابعه ثم بسط كفه أمامه، هوى بها على صدره، وقبض بشدة، التفَّت أصابعه وضغطت بقوة حتى ظن أنها ساخت بين ضلوع صدره، كان بإمكانه انتزاع قلبه ووضعه أمامه على المنضدة ومساءلته إلى متى ستظل تنبض بالحب؟!

ثم هوى بيده فأمسك قلبه وألقاه في حضن صدره.

وفي سنوات دراسته بالجامعة مكنته القراءة في كتب التاريخ من الكتابة ولم يجد شيئا يسكن رأسه سوى حكايات أبيه عن الموتى، كان يجد راحة في هذا الحديث ويُعدها عبرة وعظة له، وكثيرا ما كان يردد

https://jadidpdf.com

أمامه أن الموتى في راحة أما نحن ففي عذاب، لم يوجعنا إلا رحيلهم أما هم فسعداء بعيدا عنا، وبدأ "نوح" يسجل يومياته من الذاكرة، يسترجع كل ما قاله أبوه، وأحس أنه يتقمص دور مؤرخ ولكنه مؤرخ للموتى الذين لم يذكرهم ذاكر بعد موتهم.

من سيرة نوح الحزين

ننجب الأبناء، نربيهم، يكبرون أمام عيوننا، يلهون ويتقافزون، يبولون على ثيابنا، تلتقطهم قلوبنا بفرحة غامرة، يملؤون البيت صخبا وضجيجا، وعندما ينامون نشعر بالراحة ثم فجأة يبتلعهم الموت، ويبتلع معهم فرحتنا بهم، ترسو في القلب حسرة لا تغادره يُسمونها عذابًا ويسمونها فراقَ الأبناء، نَدُسُّ أعز ما نملك بين أحضان التراب، ونعود لنلوك المُرَّ ونمضغه متوحدين بالألم الذي يطعن قلوبنا فتدمع العيون دما.

"أنا الشاهد المشبوح على صليب الحكايات المُوجِعة، أنا الراوي والرائي، أنا "نوح" ابن حارس المقابر، تلك التي تضم أكثر من بلدة، مدافن الفقراء والموسرين، الصغار والكبار، لكل ميت قصةٌ ووراء كل نعش يشيعه ذووه حكاية، سمعت ما سمعت وروى لي أبي الذي طعن الستين من عمره منذ سنوات، ويتقدم نحو هِرمه بشيخوخة يسندها قلب مغمور بالأسى، اليدان ترتعشان وألم الركبة ينفض جسده وسعال يجرح سكون الليل لكنَّ في القلب حنينًا للزمن المولي، وفي

https://jadidpdf.com

الرأس تسكن حكايات الماضي بخيره وشره، أغلب الحكايات عن موتى قلّمَا يحكي أبي عن الأحياء يقول لي: " لماذا نتحدث عن الأحياء وهم بيننا يثرثرون؟ ماذا نفيد من إعادة كلامهم كأننا صدى لحناجرهم؟ الموتى يا ولدي كلامهم أشهى، والكلام عنهم يردنا لأزمانهم، أزمان ولَّت ولن تعود، كان القلب باخضرار الزروع الممتدة والتي لا نراها إلا في ناحية الشرق محشوا بالأمل، الآن وقد غادر الزمن وولى راحلا بلا رجعه لا يبقى إلا الحنين المولِّد للحكي"

في أذن "نوح" انصبت مئات الحكايات رواها له أبوه، كان يحكي عن الراحلين وكأنه يراهم أمام عينيه، يصمت مبتلعا ريقه الذي يجف فيرفع كوب الماء الكبير الذي يغرفه من الزير المتكئ على جزع الشجرة بحاملات صدئة مستظلا بأغصانها المورقة، ماء الزير البارد في قيظ الصيف وحرارتها، يبرّد جوفه ثم يصب ما بقي في الكوب من ماء على ظهر الزير النابت عليه العشب الأخضر.

لكزه أبوه وهو يستمع للحديث الذي يدور مع صديقه "مِصدَّق" عن حكاية "غادة" التي دخلت المقبرة من ساعتين تقريبا، امرأة شابة توفى زوجها بعد أشهر من زواجهما ثم أنجبت طفلا تصحبه كل أسبوع وتأتي لزيارة قبر زوجها، كان يتحرق شوقا لسماع باقي حكاية المرأة لكنَّ أباه زعق فيه "الشمس غابت نادِ المرأة لتخرج خلاص هنقفل البوابة"

https://jadidpdf.com

قامَ من مكانه وهو يُتبع أذنه لصوت العم "مِصدَّق" الذي لمَّ جلبابه في حجره ليتهيَّأ لمواصلة الحديث، سار بين شواهد القبور كي يتحاشى المرور على الفسقيات الصغيرة، حدَّثه أبوه أن فيها أطفالا مدفونين، شيخ المسجد كثيرا ما كان يقول له، وأنت تسير في المقابر خفف الوطء؛ امشِ على مهلك ففي كل ذرة تراب كانت هناك حياة تنبض، وقلب يدق، كم من خدٍّ مُورد بلون التفاح تحلَّل فصار دقاق غبار، أجساد ناعمة ووجوه كالحة، وأخرى مشرقة كلها تتساوى بين طيات التراب.

كان "عزيز" قد تسلق سور القرافة سار مهرولا حتى وصل لمكانها، وجدها مقرفصة بجوار قبر مطلي باللون الأصفر مكتوب بخط كبير رديء" كل من عليها فان"، في حِجرها طفل رضيع يلقم ثديها المتدلي بكامل استدارته من فتحة صدرها، لما رأته لم تنتفض أو تشعر بحرج لقدومه، ارتفعت نظرتها لتستقر على وجهه فتلاقت عيناهما، غضَّ بصره عن نظرتها ليجد كرة ثلج أبيض تبرق والطفل في نهم يمص رحيقها، أصابعُ كفه قبضت على الثدي متشبثة به، وصوت شفاهه وهي تمص اللبن يجرح هدوء الغروب، سرسوب من خيط الشمس ينعكس على بشرتها فبدتْ ملاحة وجهها المترب، اقتربَ منها، كان يصعب عليه قراءة أفكارها، لكنه شعرَ بلهيب يسري في دمه، إحساس لم يشعر به إلا أمام النساء المتأهب لاقتحام أجسادهنَّ، اقتربَ أكثر ولم ينطق، الطفل غفا وتركتْ شفتاه الثدي فتدلتْ الحلمة السمراء نافرة

https://jadidpdf.com

وعليها لعاب الطفل الممزوج باللبن، ارتفعت رأسها تنظر له وهو واقف أمامها، أسندَ يدًا على حافة القبر، وباليد الأخرى أخرجَ كرة الثلج الأخرى المختبئة تحت الجلباب الأسود، كان الطفلُ قد استغرق في النوم في حين كانت رغبته في كامل يقظتها وجوعُه يقذف بحمم النار في عروقه، برفق وضعَتْ "غادة" الطفل فوق القبر وجعلتْ من طرحتها وسادة له، أكل "عزيز" بنهمٍ مَنْ لمْ يذقْ الطعامَ طوال عمره، وسكبَ لهيبه على استسلامها فثارت مكامنها وتفتحت زهراتها، نضجت الثمار وطفقَ يقطف من شهدها.

دَكَّ "نوح" زلزالٌ قوَّضَ أركانَه، رأى الوالج والمولوج، رأى الطفل صامتا، وانتابت الأمَّ نغمة من الأنين، أدار ظهره وولى راجعًا.

خرجتْ وبين يديها رضيعها وتبعها "نوح" الذي راح يعبُّ من ماء الزير كأنما يطفئ حريقا شبَّ في جوفه.

قام أبوه فأغلق الباب الحديدي، لفَّ السلاسل الحديدية جيدًا حول أسياخ الباب ثم ضم نهاية طرفيها وربطهما بالقُفل.

عاد "نوح" إلى حجرته، والمساء يتسلل بظلامه إلى أروقة نفسه، لمّا فتح الباب داهمته رائحة البخور ورأى لما أضاء المصباح كتاب الأوراد بجواره المصحف والمِسبحة، أغلفة الكتب مرصوصة في مكانها، سكب دموعه كلها، اعتصر عينيه حتى نضبتا، هلكتَ يا"نوح" كم مرة تمنيت

https://jadidpdf.com

فيها أن تمس امرأة؟، في خياله زارته عشرات النساء، ضاجعهن وذاق حلاوتهن، كتب عليك الندم يا "نوح"، ونضا عن نفسه ثيابه المتسخة بحُرقة تأكل جسده، وعاودته الأسئلة نفسها، لكنه كان بحاجة للنوم.

وفي الطريق إلى المسجد قابل "نوح" "عزيز"، وسأله: كيف تقف أمام الله والدنس يقطر من مسام جلدك، سيرى أثر الزنا في عينيك، وعلى شفتيك تنطبع القبلات المحرمة، آه، ما ألذ الخطأ وما أقساه ألما علينا!

يبدأ "نوح" في تسجيل بعض خواطره عندما تشتد أحزان نفسه ولا يجد ملاذًا إلا الكتابة، في تلك الليلة كتب:

"أجلس أمامه تصل إلى أنفي رائحة المسك المنبعثة من سُبحته، يحركها في يده المُشعة بالبياض، ينظر نحوي بعينين يملأهما الحنان الغارق في الرقة، في خلفه تصطف الكتب مرصوصة بعناية ودقة داخل أرفف المكتبة التي تشمل ثلاثة جدران من الغرفة، الضوء ينساب من مصابيح عدة بيضاء كلها مُضاءة، يحس غلالة حزن ترسو في نظرتي إليه، تسمح لي رقته أن أبوح بكل ما يثقل همي، لكني لا أستطيع أن أجرب الاعتراف، كنت أراه في المجلس هازًا رأسه تداعب أصابعه السُبحة في رقة، شاردا يقلب عينيه المغمضتين، وشفتاه تتحركان مرددا بصوت خفيض أوراد الذكر وأشعاره، جلبابه وطاقيته ناصعتا البياض، وفي وجهه تنبت لحية خفيفة مهذبة لونها أسود فاحم مثل شعره المطل

https://jadidpdf.com

من جوانب الطاقية المثقوبة، أندفع نحو يده الممدودة لي يصافحني، أخطو نحوه، يشد على يدي بحرارة ونمضي نلتمس حذاءينا من بين الأحذية التي تمتد الأيدي تلتقطها فتدس أقدامها فيها، الشمس ترشُّ ضياءَها المُحرق في الوجوه وتذرُّ أشعتها فتُغمَض العيونُ اتِّقاء لها، أتخير شارعا جانبيا تقل حركة المارين به أتحاشى الناس، أخشى أن تمسني نظرة فيهتك فضولها ما أودُّ ستره وتبديه عيناي، الانحناءات في الشارع تكسر حدة الشمس أسير بجوار الجدار، أقطع المسافة بسرعة، أكاد أهرول بجلبابي المتسع وحذائي الجلدي، أدخل المنزل وأتجه لحجرتي في الطابق الأول، أغلق الباب، وأتمدد ملتقطا أنفاسي، يمرق شبح شخص أمام الباب المفتوح قليلا، يخفق قلبي لا أصدق، أنفض عن رأسي هذا الخاطر وأركز عيني على كلام الرجل، لكن ارتباكي لا يَخفى عليه، يطرق الباب فأنتفض دون أن يشعر بارتجافي، يقوم ليحضر كوبين من "الينسون" وكوبا من الماء، خطوات ناعمة تمر ببطء على السجادة تختفي رويدا حتى تتلاشى تماما، الهدوء يغمر البيت لا صوت ينبعث سوى صوت المارين في الشارع ونداءات الباعة تأتي محمولة برائحة الأشياء التي يبيعونها.

بدلت ثوبي ولبست ثوبا خفيفا وفتحت كتيب الأوراد وبدأت أقرأ وأردد، كان ورد يوم الأحد خفيفا لكني تلذذت بالقراءة وأكثرت من التكرار حتى كدت أحفظ الورد عن ظهر قلب من كثرة التكرار وأنا

https://jadidpdf.com

أتمتم سمعت طرقا على الباب يشبه الذي سمعته في بيت الشيخ وقبل أن أقوم لأفتح الباب دُفع دفعة خفيفة وتبدى الملاك الذي رأيته يمرق هناك يحمل "الصينية" نفسها وعليها كوبا "الينسون" وكوب الماء، لم تكن بزي المدرسة الكحلي الذي رأيتها به أول مرة، كانت تلبس عباءة سوداء فضفاضة وعلى رأسها حجاب أحمر يطوِّق الرأس الصغير، وشعَّ النور من الوجنتين وتراءت كنجمة بازغة الضوء يحلق حولها أسراب النجوم تطوف بها ممسكة بشموع صغيرة، وهناك طفل صغير يتلو في أذني الأوراد وطفل آخرَ أذَّن بصوت رقراق ينساب فيتخلل أعضائي ساريا إلى قلبي، ثم جاء شيخي فصرف الطفلين وأسراب النجوم التي ظهرت كبنات صغيرات لم ينهد بعد، مدَّ يده إليَّ، قمت من رقدتي ومددت يدي، تلقاها ثم وضعها في يدها وضم عليهما واحتوت يدينا كفه وشعرتُ بملمس الحرير يتسرب هاربا من جلدها لدمي ثم رفع بصره وصوبه في المسافة التي بيننا وكأنه يدعو عينينا للنظر، وتلاقتْ المقلتان وضمتها أهدابي في حنو ونطق نور وجهها بابتسامة ارتمت على شفتي فحركتها لتنحرف إلى اليمين راسمة طيف بسمة ترف ولا تستقر ثم اختفى الشيخ وتبعته الابنة النورانية ووجدتني أمسك كتاب الأوراد في يدي وإصبعي الذي تعرَّق حافرا بَصْمته في أسفل الصفحة بالكتاب.

سبحتُ طيلة النهار في خيالات شتى مجترا ذلك الحلم الفضي، زار

https://jadidpdf.com

النور غرفتي فسكنها ولم يغادرها، وتسلل لنفسي الخربة المحاطة بالأوهام وطفقت أتسلى سارحا بالحلم أستدعيه مرات ومرات مصوبا عينيَّ لذلك الوجه الناضح بالجمال والنور، تحسست يدي التي مستها واستشعرت ملمسها الحريري، لما غادرت كف الشيخ يدينا وأخذت أنظر إلى يدي، وكأن الحرير مرَّ عليها الآن، ووثب قلبي من الفرحة واشتقت للقاء الشيخ لكني لم أجد سببا في ذهابي له وقد كنت في بيته منذ ساعات ولم نتواعد على زيارته، كنت مشتاقا أن أحكي له عن هذا الحلم وعن هذه الفتاة النورانية وتلك الملائكة التي حفتنا أجنحتها."

بالليل نظر "نوح" إلى السماء فراعه شكلُ القمر وكان مكتملا، دقق فيه النظر فرأى خطوطًا تخترقه، كخطوط الكف، ترتسم فتكون وجوها يعرفها، وأخرى يجهلها، منذ متى لم ينظر للقمر ويسرِّح خياله مستحضرا ضحكة "أسماء"؟

"انتهينا يا قمر من قبل أن نبدأ، كنت أتمنى أن أكتب مرثية حبي، لكنِّي موكلٌ بحكايات الأموات، الموت قدري يا قمر، أراه كل يوم، وأسمع حكاياته من أبي ومن عمي "مِصدَّق"، أسمع صرخات النساء وهن يبكين، ويهلن التراب فوق رؤوسهن بمجرد انزواء أزواجهنَّ في أحضان القبر، والأولاد وهم يرتشفون أول كأس من اليتم، يهرولون خلف النعش، بقلوب منفطرة، وأعين دامعة، كلها مراثي ليس آخرها الراحلين ولم يكن أولها حبي الميّت."

https://jadidpdf.com

فلسفة "نوح" كانت تؤرق "عزيز" وكثيرا حاول جداله لكن "عزيز" كان يمضي في غيه سادرًا.

في السنة النهائية من الجامعة التحق "عزيز" بمركز لتعلم اللغات الأجنبية، ترك المحاضرات وصُحبة "نوح" وأخذ يتردد على المركز ثلاث مرات أسبوعيا، ثم يجلس ليلا يذاكر جيدا وبعناية كل ما تم تحصيله في المحاضرات،عندما يلتقي بـ "نوح" يداعبه بكلمات أجنبية، غالبا ما تكون كلمات غرامية أو إيحاءات جنسية، يقولها غامزًا بعينه و"نوح" يبتسم في هدوء من جانب فمه، كان يتقدم بشكل مذهل في استيعاب اللغات الجديدة، في رأسه مشاريع كثيرة وطموحات لم يُسرِّها لأحد إلا "نوح"، لم يفكر في انتظار وظيفة براتب متخاذل ليظل مستدينا دائمًا، منتظرًا بلهفة نهاية الشهر كي يأخذ راتبه، بمجرد انتهائه من الدراسة قرر أن يسافر مباشرة لأية دولة، قال له "نوح"

- والكلية والمذاكرة يا "عزيز".

- التاريخ لن يفيدنا شيئا يا صاحبي، دولة بني العباس والمماليك والعثمانيين وثورات الشعب المصري الذي لم يثر لن تنفعنا حقًا.

كان حلم السفر مسيطرًا عليه خاصة مع اقتراب تخرجه في الكلية، أحرز تقدما يحفزه طموح متقد يدفعه بقوة نحو حُلمه، ولم يدر "نوح"

https://jadidpdf.com

أن يكون هناك شخص مستهتر مثل "عزيز" يمتلك مقدرة على السير نحو حُلمه رغم انحرافاته السابقة، أُعجب به كثيرًا حتى فكَّر أن يذهب معه.

- حاولت تعلم لغة أجنبيةٍ لكني عدلت عنها، تعلمت لغة المماليك.

وفي مركز تعلم اللغات مارس "عزيز" هوايته في اجتذاب الفتيات، تعرَّف إلى فتاة شقراء تنتمي إلى أحد الأحياء الراقية في المدينة التي كانت تبعد بضعة كيلومترات عن القرية يقطعها مستقلا السيارة في كل أسبوع ثلاث مرات، ربع ساعة فقط تفصل القرية عن المدينة ليكون أمام المركز، راقته عينيها الزرقاوتين وشعرها الأصفر البارز من أسفل الحجاب، ظن الفتاة في بادئ الأمر أجنبية لكن سرعان ما رطنت بالعربي فنكس حلمه القديم في أن يتزوج أجنبية ويسافر معها.

- أي جنسية يا "نوح" يا صاحبي، المهم أن أحصل هناك على جنسية بلدها وتوفر لي عمل.

- قلت يمكن أجنبية ومسلمة يعني حلال ١٠٠٪ يا عم الشيخ.

وكان لدى "عزيز" رصيد من النوايا السيئة جعله يلتقط بسرعة البنطال الذي ينهش جسد الفتاة في فُجر واضح.

- بنطلون أحمر لازق يا صاحبي.

***

https://jadidpdf.com

وقع "نوح" في هوى ابن إياس وكتابه الضخم "بدائع الزهور في وقائع الدهور".

كان يقرأ كتب التاريخ بنهم ويقع أثيرا لهذه الكتب، و"عزيز" كان أيضا يقرأ لكن ليس بنهم "نوح".

من بين كتب التاريخ لم ترق لـ "عزيز" إلا اللذائذ؛ فضائح الملوك والأمراء، شهوات المماليك للدم والمرأة، الجنس السائل بين صفحات الكتب، أما "نوح" فكان مبهورًا بالحكايات، يبحث في كل كتاب عن الحكاية ليرويها لـ"عزيز" في جلسة صفاء معه، ويومًا قرأ عن ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون، فطار فرحًا يقص على "عزيز" حكاياتها:

قطر الندى

أسماء

أميرة ابنة ملك وحفيدة ملك

وستتزوج ملكًا

"يا لحسرتك يا "نوح"

يسخر "عزيز" من لهفة "نوح" في الحكي.

لم يشهد المصريون طيلة عهدهم أميرة في ذكاء "أسماء"، ولا في جمالها، ولا رقتها، زُفَّت للخليفة "المعتضد"، وهناك رأت ما رأتْ.

https://jadidpdf.com

- يا "نوح" مالنا ولقطر الندى التي ماتت هي وأهلها منذ مئات السنين.

- كان اسمها "أسماء"، وكانت أميرة.

"أسماء" أميرة على قلبي، ولن تَرضى أن يُقطَّع حزنا عليها"

- ومتى ستنسى "أسماء"، الموت كل يوم أمامك تشاهده بعينيك، لم تتعلم منه دفن ذكرياتك، كل شيء يموت ويُدفن، وأنت تأبى أن تُميت الحب الذي يرعى في قلبك، ولم تفلح معك حكايات أبي وأبيك.

- أين أنتِ يا "أسماء"؟

وبكى "نوح" وغابت القسوة من كلام "عزيز"، واقترب وأراد أن يضمه لكنه اكتفى بأن يربت على كتفه.

- لن تكف يا "نوح" عن البكاء، طالما تَذْكرُها، عِشْ حياتك، تمتع بكل ما فيها.

الوجود نغمة ساحرة صَمَّ "نوح" آذانه عنها، أغلق قلبه عن استقبال الحياة، "عزيز" يعيش الحياة ويستمتع بكل ما فيها، تُطربه الموسيقى، ويلذ بالنظر أحيانا في بعض الكتب والأشعار؛ كي ينقل منها بعض العبارات ليقولها لحبيباته، لم يحرم جسده متعة طارئة، لم ينس أنه إنسان لا يكف جسده وروحه عن الاحتياج، يشتاق لكلمة حلوة، لنظرة من عيني فاتنة أو ضمة أو لثمة أو عناق يدغدغ عظامه.

https://jadidpdf.com

وخرجت قطر الندى في موكب تتبعها الزغاريدُ من مدينة القطائع إلى بغداد حيثُ الأبهةُ والزينةُ تحفُّها من كل مكان، ولما استوحشتْ الصحراء، اقترح مَن له معرفة بنفوس الحسناوات، أن يُبنى في كل استراحة تقف بها قافلة العرس ما يشبه القصر الذي نشأت فيه قطر الندى، طوبة من ذهب، طوبة من فضة، هكذا ارتفعت الجدران أمام عينيها، أسلمت عينيها للصحراء فارتابت، أين قصر أبيها؟ أين بركة الزئبق؟، وراحت نظرتها تنام على غلام أشقر يجري هنا وهناك في خفة، كان مجلوبًا لخدمتها، كم سيوحشها افتقاد ذلك الوجه الناضر! عرفته منذ صباها، عينان ناعستان كعيني ظبية، جلده رقيق كجارية مجلوَّة لعرسها، أسنان في بياض الثلج، وغُنة صوت تهدهد دقات قلبها، تشعر بالألم من الجلوس طوال الرحلة فتمد قدميها فتأتي جارية في خفة الريح فتريح قدميّ الأميرة على سبيكة كبيرة من الذهب.

بعد عصر يوم دار "نوح" حول سور القرافة كمن يبحث عن شيء، لف المكان حتى انتهى إلى الخلاء حيث الرمال الناعمة تداعب حذاءه، اصفرار الشمس واصفرار الرمال ينعكسان على صفحة وجهه فتبرق عيناه بالاصفرار، من بين أجفانه سالت نظرة حزينة؛ نظرة حنون، "نوح" كطفل جائع يبحث في يأسٍ عن ثدي أمه، بصبر يمد بصره هناك حيث اللاشيء، يريد أن يذهب، ثمة نداء ما يهتف في أعماقه بقوة، يدعوه لخوض الصحراء ماشيًا والعيش منفردًا لمدة طويلة،

https://jadidpdf.com

الغروب يوشك على مدِّ ظلاله على القرية، والطفل من بئر مظلمة يصرخ وهو يرى أثداء متدلية من فوهة البئر لنساء يشبهن أمه، حنين موجع لديه ليلقم نهد الصحراء الضامر.

في الليلة الأولى، في القصر وأبهته، الجدران المكسوّة برخام ينفث نورًا ممزوجًا بمسك يتطاير ليمسَّ الأنوف، البُسُط المفروشة والمصنوعة من أنوال ريحِ الصَّبا، مُعشَّقة نوافذُ القصر بأبنوس عجيب، مطلي بماء الذهب، عاشق ومعشوق، كأنَّ دِنان الخمر منسكبةٌ في رؤوس الجواري، كُنَّ يخطرن كما الملائكة، والغلمان وما أدراك ما نعومتهم وتراقص مشيتهم، كأنهم يتدافعون لخدمة الأميرة المصرية الجديدة، وعلى سرير حواشيه بطائنها من حرير ناعم، نامت قطر الندى، نعست عيناها، فكأنما لم تذق النوم بمصر، سرحت أحلامها هناك حيث قصر أبيها وجدِّها، قصر وقصر وبينهما تُعقَد مفاضلة، وفي السَّحر تقاطر العسل من شفتيها، رأى الخليفة رضابا يسيل، وتحرك اللسان، فبرق الثغر من بين نُدف السحب المنضدة بعناية، رأى واشتهى وضنَّ، قال لوزيره وكاتم سره: أنا أولى بأسماء من أيِّ أحد حتى لو كان ابني.

ولمَّا رأى الوزير اشتهاء الملك يسيل من بين حروف كلامه وهو يُحدثه، أمَّن على كلام الخليفة واطمأنَّ قلبه.

صرخَ "نوح" في لهفة:

https://jadidpdf.com

- قافلة العُرس مرَّت من هنا، قدما "أسماء" داست هذه البقعة، انظر يا "عزيز"، أقدامها الصغيرة ها هي، أنا أعرف خطوها، كثيرا ما تبعتها وكنت أخطو فوق تلك الخطوات، أضع القدم على القدم ألا تصدقني؟ عندك حق أنت تنظر بعينك أما أنا فأنظر بعيني قلبي، قلبي الذي لم يخطئ مرة في معرفة طريق مرَّتْ فيه أسماء، من هنا مرَّتْ انظر، يا "عزيز" انظر.

- قطر الندى أم أسماء؟

- قطر الندى هي أسماء، وأسماء هي قطر الندى، لماذا لا تصدقني؟

- هيا بنا يا "نوح" نعود.

- لماذا جئت ورائي، أنا أريد أن أبقى وحدي، مرقت بين شوهد القبور لتراقبني.

- لا أراقبك، لكنّ أبوك هو الذي قال لي اتبع "نوح"، لا تدعه يسير وحيدا، أبوك يظنك مجنونا يا "نوح".

وبكى "نوح"....

قطر الندى في قصر جديد بُني لها خصيصا كي تسكنه، لا هو يشبه قصر أبيها ولا القصر الذي سال فيه العسل من فمها، بركة الزئبق أصبحت بحيرة، تمرح فيها الألوان البرَّاقة، الشمس تسطع فتجري خيوطها على صفحتها، في حديقة القصر الممتدة أمام عينيها تخطر

https://jadidpdf.com

الظباء في رشاقة، تتدلى من بين أغصان الشجر أذرع القرود، تتقافز، وتتهارش متضاحكة، أسود ضارية محبوسة في أقفاص حديدية وعليها حرَّاس مدربون على التعامل معها، طواويس تنقر نوافذ حجرتها، تلك التي باتساع عشر حجرات من حجرات قصر أبيها، في صباح اليوم الأول، استيقظت على شعاع رفيع تسلل عبر النافذة ليخدش نومها، قامت والضحى يلف المكان بشمسه الحنون، استرخت في حوض مملوء بنبيذ ممزوج بحليب، تعاون الجواري على تدليك جلدها الناعم، رقة لم تعهدها الجواري في أجساد الأميرات، وتهامسن "نهدا الأميرة المصرية مدملك، الماء ينزلق حرًا مرحًا على الجسد، كأن جسدها قد نحته نحات من الذين يجيئون مدينة المسرة "سامراء" يقومون بتفصيل ونحت أجساد لأشخاص على هيئة الرجال والنساء، وينحتون أشكالا أخرى لحيوانات، تُعرض كلها في احتفال كبير ويأتي الناس من بغداد وباقي البلدان ليشاهدوا ذلك المحفل، التماثيل تبرق كأنها ألماس لم ينقصها سوى أن تُلقَى فيها نفخة الروح فتطير بأجنحة كأجنحة الملائكة، نجم مصري في سماء الليل الأول للأميرة وهي في قصرها، رحل معها عندما غادرت مصر لبغداد تبعها حتى القصر الجديد في سامراء، كان ينظر ويقطر دمعًا وينوح كأنه روح هائمة في مجرات السماء يود أن يهوي إلى الأرض فيلثم موضعًا داسته الأميرة، تُغلق النوافذ ليلا وتُسدل ستائرُ من حرير، تُوقد الشموع وتنبعث رائحةُ العنبر من أعطاف الخليفة المتهيِّئ لارتشاف رضاب الأميرة وينوح

https://jadidpdf.com

النجم في السماء.

جرى الماء على الجسد فكأنما مسكٌ واندلق، وراحت الجواري يتغامزن.

- لم يُعرف في الكون مثل جمال فتيات مصر، جمال ممزوج بذكاء لا كجمال فتيات بلاد الرافدين والجزيرة اللاتي قتلتهن البداوة، نداوة قلوبهن جفتْ ويبستْ، أما فتيات بلاد ما وراء النهر فلهنَّ عيون تذهب بلب أكمل الرجال.

-وما أدراك بأنواع الجمال يا "عزيز"، تتحدث كأنك عليم بحال نساء العالم.

قالها "نوح"، وهو يغرس أصابعه في الرمال.

-قرأت كل ذلك في كتاب، وتخيلت كل شيء، أيضا التلفزيون لم يترك شيئا، يعرض النساء من كل أنحاء العالم، التلفزيون الذي تهجره ولا تشاهده يا "نوح"!

ونقر هدوءَ الليل صياحُ ديكة الفجر، وتأوَّهتْ الأميرة ملتذة بالنوم في القصر الجديد، وفي ليلة طرق أذنها صوت قادم من مصر جاء الصوتُ بما أغمها...

يبس "نوح" وتخشب جسده كأن اللحم يخاصم عظامه فلا يقربها، اقترب من المرآة، نظر إلى الشَّعر الذي انتشر في ذقنه، أطلت من الشعرات السود شعرة واحدة بيضاء، مرَّر أصابعه على شعره فأحس

https://jadidpdf.com

بخفته ولمس جلد شعره، تجاوزت الثلاثين يا ابن حارس القرافة.

وفي ذلك الأسبوع توافد على القرافة عشرات النعوش، وكان يسجل في دفتره كل من يدخل باسمه ويذهب ليجلس بجوار أبيه والعم "مِصدَّق" ليعرفَ قصة الرجل.

في يوم جاء لمجلس يضم الثلاثة؛ أباه و"مِصَّدق" و"عزيز"، صرخ فيهم وهو يبكي:

- أسماء ماتت، قطر الندى، انتهت كأنها لم تكن، رحلتِ يا أسماء، وأنا سأرحل وراءك.

والتقمه حضن "عزيز" الذي أخذه وسارا بعيدًا، دارا حول سور المقابر، وهمس "مِصدَّق" في أذن "أبو نوح".

- ابنك ماله؟

صمت أبوه وهو يمصمص شفتيه.

قال "نوح" لـ "عزيز" إن النجم الذي كان يتبع قطر الندى هو الغلام الذي أُعجبت به، وهذا الغلام نفسه هو "نوح".

- انس التاريخ، اقرأ وانس يا نوح.

- سأذهب كما أخبرتك، وراء ريح تدلني على "أسماء".

***

https://jadidpdf.com

ولَّى ظهره للقرية، أطلق قدميه للريح، يسحبه نداء مجهول، كان يسمعه في نصف الليل الثاني، مع اشتداد الظلمة وبزوغ نقط النجوم في صفحة السماء زاهية، مع هدوء النار التي يحدق فيها أبوه بعدما تسري حرارتها في أوصاله، يؤلمه فكه فيتوقف عن الحديث، ويواصل التحديق، كان يواصل الحديث للنار صامتًا، أو يسمع عنها ما تقوله، ظهره للمقابر ووجهه ناحية الغرب، الصحراء بامتداد البصر، لا تحده إلا بعض البيوت التي نبتت في الغرب، وبعض الشجيرات التي تقاوم حرارة الصحراء، زحف "نوح" يحمل رأسا مليئة بالأفكار التي لا تتوقف عن التلاطم، عندما يهدأ القلب عن الأنين يبدأ العقل دوره، ها قد أودع "نوح" أيام عمل القلب؛ ودَّعه صديقه "عزيز"، آخر ما قاله له بضع كلمات أجنبية، قالها، وهو يضحك، لا يعرف "عزيز" الشجن والحزن للفراق، كان سعيدًا لرحيله بعيدًا عن قريته المترامية في حِضن الصحراء، تبدأ بالمعبد الشهير وتنتهي بالمقابر، لم يكن محاصرًا مثل صديقه بحكايات الوالدين الصديقين، أجاب النداء نحو الرحيل مثله مثل صديقه؛ لكن "نوح" كان نداؤه ينبعث من داخله، هكذا يَدَّعي رغم أن الصوت كان قادمًا من الغرب، من بعيد، حيث الخلاء الذي لا يجرح القلب الذي سكن وارتاح، من يودِّع "نوح" وهو يرحل؟ هل يدور على الأقارب يسلم عليهم، يدا بيدٍ، يضع قُبلة على جبين عمته وأخرى على يد أمه، هل يذهب إلى أختيه؟ يترك عندهما

https://jadidpdf.com

ابتسامة شاحبة أخيرة، تعوَّداها من أخيهما الوحيد، ماذا سيقول للذين سيودعهم؟ إلى أين سيذهب؟ ولماذا؟ الناس لا تكف عن الأسئلة، لكنه ودع الناس وصحبتهم منذ زمن.

يبقى وداع أخير واجب عليه لابد أن يمر على "أسماء"، يحتاج أن يذهب للمدينة، يستقل عربة وستنزله بجوار محطة السكة الحديد، الشارع الطويل الواقع أمامها يسير بضع مئات من الأمتار، يترك أول شارع على الناحية اليمنى، ثاني شارع يسير فيه قليلا على اليسار سيجد يافطة مضيئة مكتوب عليها "صيدلية الدكتورة أسماء"، وشعار الثعبان الملتف حول الكأس بين كلمة دكتورة وكلمة أسماء، أسفلها الآية القرآنية "وإذا مرضتُ فهو يشفيني".

الطريق إلى الصيدلية كما وصفه "عزيز" الذي اكتشفه أثناء سيره مع فتاة عرفها في المدينة، لما رأى الصيدلية أخبر "نوح" بمكانها، وحُفرت معالم المكان في ذاكرته، كان يعلم أنه سيأتي يومًا ما؛ لا ليراها لكن ليودعها.

قرأ الآية القرآنية بعناية، كان الألمُ ينغزه، فيحرك ساقيه، تمتم في تضرع مغمضًا عينيه:

- هل عندك شفائي يا "أسماء"؟

الصيدلية كانت مغلقة، ككل الطرق المؤدية إليها؛ لم يبق إلا الرحيل

https://jadidpdf.com

أمامه حاملا ألمه وحبَّه المقبور في قلبه.

كرر الزيارة مرة أخرى، عساه يجدها، أمام الشارع وجد نور "اليافطة" مضيئا، اسمها واضح جدا، اقترب أكثر، كان الشوق يدفعه فيسير بسرعة، الباب مفتوح، نور أبيض ينبعث من أعلى الباب، مصابيح كثيرة مضيئة وأضواء أخرى صفراء آتية من الداخل مُشعة بهجة على المكان، وقف في حضرة الضوء المتداخل نظر للداخل فوجد فتاة تنظر في ورق دق قلبه بعنف، لما رأته واقفا، رفعت عينيها ونظرت إليه، كانت فتاة شاحبة بنظارة كنظارة أسماء، لكنها ليست هي، فكَّرَ بالرجوع لكن نظرة الفتاة التي طالت مستوضحة عن سبب وقوفه، قرر الدخول، من بين زجاج نظارة الفتاة كانت ابتسامة تطل عليه، دسَّ يده في جيبه وأخرج "الروشتة"، أعطاها لها، اكتشف أنه لم يلق عليها السلام، وكان ارتباكهُ حافزًا على اتساع نظرتها بخبث متسللة من زجاج النظارة، نظرت في "الروشتة" فوجدت مكتوبا أسفلها من الناحية اليمنى أسعار الأدوية والبرشام ثم الحساب كاملا، سألته:

- أنت صرفتها قبل كده، تريد أن تكررها.

صمت للحظات تعمقت فيها حيرته، وازداد خبث ابتسامتها، لحظتها تذكر "عزيز" وفرائسه.

"صيد سهل يا "عزيز"، كلمة منك مع نظرة غامزة، تطوي ورقة

https://jadidpdf.com

فيها ميعاد اللقاء، وينتهى الأمر."

حدَّث نفسه بذلك، وهو يتلعثم قائلا لها:

النوع الأول بس.

فكَّر أن يسألها عن "أسماء" لكن الحيرة والارتباك طوقتا لسانه، جاءت له بالدواء، وضعته في كيس بلاستيكي صغير، مكتوب عليه اسم الصيدلية وهواتف الصيدلية وعنوانها، في الأسفل كانت كلمة "خدمة ٢٤ ساعة" لمحها وانطلق لسانه:

- الصيدلية مفتوحة طول اليوم؟

- نعم طول اليوم.

- لكنها كانت مغلقة من يومين في نفس الوقت ده.

- تغيير ورديات، زميلي أحيانا يتأخر وأنا أضطر لغلق الصيدلية والمغادرة.

سلك لسانه طريقه، وتخلص من تلعثمه، نطق أخيرًا ما جاء من أجله:

- والدكتورة "أسماء" متى تأتي؟

- الدكتورة باعت الصيدلية، اسمها فقط هو الباقي هنا.

- متى باعتها؟

https://jadidpdf.com

- من شهرين وسافرت مع زوجها.

كأنَّ ملح البحر يشق حلقه، أحسَّ بمرارة شديدة، كان الدمع يزحف متجهًا لساحل جفنيه، بيدٍ أخذ الكيس الذي به الدواء وبالأخرى مد إليها عشرة جنيهات، ومثلما لم يُلق التحية عندما جاء غادر أيضًا صامتا، لم يأخذ باقي نقوده، عندما همَّتْ الفتاة لتعطيه الباقي كان قد تركها وخرج يجر نفسه، اتجهت إلى الخارج لتناديه كي يأخذ باقي نقوده، رأته يُوَسع خطاه، نادت عليه.

- يا أستاذ ... ياا!! ياا!!

مطت فمها، مندهشة، أتبعته نظرها حتى مال ناحية اليسار في شارع المحطة.

الصحراء ... الصحراء ، نداء من عمقها مستمر يطن في أذنيه، سيلبي النداء، لكن عليه أن يذهب للمعبد، يسلم على العم "نجاتي" الذي جعله يحفظ كل حجر موجود في جدران المعبد، كل رسم خلفه حكاية يقصها عليه، كان قد اكتسب خبرة كبيرة في عمله في المعبد، يسمع المرشدين السياحيين، وما يقولونه للسياح، اكتسب بعض الألفاظ الأجنبية، حكى لـ"نوح" كل ما سمعه طيلة فترة عمله في المعبد، وزاد عليها "نوح" من خلال قراءاته عن المعبد، جاء واحتضن عمه "نجاتي" وودعه، ولم يقل له أين سيغادر، أخبره أنه سيسافر في رحلة علاج، دعا له بالتوفيق، وهو يضمه إليه، ويقبله.

https://jadidpdf.com

نهاية لا بد منها

تعبت قدماه وقلت حركته، مع تقدم العمر زارته الأمراض، ولم يزر الطبيب، يسعل باصقًا مخاطًا ممزوجًا بخيوط حمراء، يزدرد ريقه، ويكمل الحديث، كبر سنه والشيخوخة التي تطحنه يوما بعد يوم جعلته يتغاضى عن أشياء ما كان يتركها تمر من قبل، كان يعرف أن الأرملة تأتي للقرافة، تطيل الجلوس و"عزيز" يتسلل و .... يسكت المُتحدث، لا يريده أن يكمل هل يوصف في هذه السن بأنه "معرص"، يبصق على الجدار، خوفه كان على "نوح" كبيرًا، ارتاح قليلا بعد سفر "عزيز" وانقطاع الأرملة عن المجيء إلا في المواسم، تغطي فتحة صدرها بلفة من الملابس تطوق طفلها، تترجرج تضاريسها.

يوم أن رآها "عزيز" همس في أذن "نوح" ليتنا درسنا الجغرافيا ولم ندرس التاريخ، هناك تضاريس لابد أن تُدرس، تُكتشف أولا، أماكن لم تطأها قدم، لم تمر عليها يَدًا نحات، تجلوها وتخلصها من ترهل

https://jadidpdf.com

رغبتها، زام "عزيز" لما رأى رجرجة الهضبتين، وهناك خرق صمت المقابر، وخرق ما لا يمكن رتقه، زرع سيفه في صحراء ظامئة، ألقى سيفه، ورحل تاركًا وشم نصله يبرق في عين الشمس.

-ابنك فضحنا يا مِصدَّق.

-أهو غار لبلاد برَّة، ليت "نوح" سافر معه.

-"نوح" في مُلك تاني، أحيانا أتمنى أن يكون زي "عزيز"، ويترك دروشته.

من الذي جعله حارسًا للقرافة، نصَّب نفسه حارسًا للموتى

- للموتى أم للمومسات؟!

جاء الصوت من رجل يمسك نبوتا يشهره في وجه "أبو نوح"، هوى على جدران الغرفة الطينية فتكومت تحت ضربات الرجال الذين تابعوا هدم الحجرة، "أبو نوح" يجري و"مِصدَّق" يسنده.

" الآن علم الناس كلهم أني لم أُعيَّن خفيرًا للمقابر، جعلت من نفسي حارسًا وعشت بجوار الموتى، الوهم الذي صدقته وجعلت الناس تصدقه، الآن انكشف كل شيء، المهم عندي هو "نوح"، هيا يا "مِصدَّق" نرحل إليه سنفتش عليه في الصحراء حتى نجده، لم يبق لنا هنا أيَّ أحدٍ، "عزيز" سافر، و"نوح" تائه، سنمر على زوجتي نأخذها وننطلق، حياتنا كلها انتهت"

https://jadidpdf.com

***

جلست "غادة" أسفل الشجرة الوحيدة الموجودة في المقابر، لا أحد يدري من زرع هذه الشجرة، ولماذا هي وحيدة تظلل شواهد القبور تحتها؟ طفلها يمص ثديها وهي ترقب الطيور البيضاء التي تغيب وتحط على أغصانها لتسكن في المساء وتُلوِّن الفروع الخضراء بلون أبيض، ساكنة تماما لا تتحرك، ولا تصدر صوتا، كأنها تخاف إزعاج الموتى، أما النهار فللصخب والطيران والليل للهدوء والسكينة.

"غادة" تضم ورقة نقدية من فئة الخمسين جنيهًا، أعطاها لها "عزيز" في آخر لقاء معها، لم يواقعها هذه المرة، أراد فقط أن يبلغها أنه سيسافر، عضت على شفتها، كانت تعلق عليه سرسوبًا من الأمل يتسرب من بين يديه الحاميتين اللتين تعصران جسدها، ينقدها في كل مرَّة ما يكفي حاجتها، ولما سمعت منه كلمة "أحبك"، كانت الكلمة تزور أذنها لأول مرة، لم تسمعها قبل زواجها إلا مرة واحدة من "المِعلمة" التي همست في أذنها وهي في حضنها "أنا بحبك يابت" تخلصت من ذراعيها، وابتعدت عنها وقررت الفرار من ذلك السجن، أما زوجها الأهطل فلم تسمع منه إلا فحيح صوته مع رعشة الجماع، فحيح آخر سمعته منه أطلقه يوم أن كان راقدًا في المستشفى بعد أن قطعت يده آلة قطع الخشب في ورشة أبيها، أطلق آهة وتدلت شفتاه، وجسده تنزف منه الحياة ويسكنه طائر الموت.

https://jadidpdf.com

لم يقلها الأهطل ولو لمرة واحدة، كيف له أن ينطق بكلمة حب وقد غفل عن الخرق الذي يجزر شرفها، سمعتها من "عزيز" وتعلقت بها، كانت جسدا جميلا ووجها بين الدمامة والوسامة.

سيسافر "عزيز" ويتركها لأحزانها وعوزها، أبوها الذي ارتاح عندما أنقذها الزواج من الفضيحة، وأصبحت أمام الناس زوجة ثم أرملة، لن يبحث عن زوج، لا حاجة لها الآن لرجل يرتق الخرق، ونظرت لنفسها فوجدت أن رُوحها مثقوبة ومملوءة بخروق كثيرة لن يداويها أهطل أو غيره، هل سيبحث أبوها لها عن أهطل يعمل في ورشته غير الذي مات أم تبحث هي عن رجل يمكن له أن يهبها الحياة كما فعل "عزيز"؟ تشبثت به وهو يودعها، طلبت منه أن يبقى ولا يسافر، ورب هنا كربٌ هناك، لكنه اكتفى بقبلة على خدها المملح بماء دمعها، توسلت عيناها المكحولتان، دسَّ لها الخمسين جنيها، ولو ألحَّت فلن يفعل أكثر من ذلك، تلفَّت نحوه ليتأكد من خلو المقابر من أي شخص ورحل.

توالى الراحلون بدءًا من "عزيز" ثم الأستاذ "صبري"، ثم خُتم الرحيل بـ "نوح"، والآن أبوه و"مِصدق"، قررت "غادة" الرحيل أيضًا ربما إلى "المِعلمة" وعصابتها، المهم أن تترك أباها وقبر الزوج الأهبل.

https://jadidpdf.com

بروميثيوس الجديد
متن ثانٍ

أتاني من بعيد صوت صفير الثعبان، كان الصوت تقريبًا ينبعث من خلف الصخرة، فزعتُ من ذلك الصوت، أعرف أن الثعبان ينادي رفيقته، لكنه كان صامتًا بالأمس، صمته هو الذي كان يؤنسني، استمر الصفير، وبدأ قلبي يدق بعنف إلى أن ارتفع صوت ذئب وأخذ في العواء بصوتٍ عالٍ غطى على صفير الثعبان، غرستُ عيني في المخطوط، وسرعان ما رددتها عندما سمعت صوت تهارش الذئاب، الرعب تملكني، كانت أصواتهم تأتي مختلطة، يتقاتلون على شيء، خمنته أنثى، يريدون مضاجعتها، ولم أكن أدري بأن جماع الذئاب يُحدث كل هذا العراك، هدأتْ الذئاب وهدأتْ معها النار، ولم أنتقل من الصفحة الأولى من المخطوط، كانت ألسنة الفجر قد أخذت في الحبو على صفحة السماء، عرفت أن نار النهار القادمة من نار المعرفة المتسربة

https://jadidpdf.com

عبر هذا المخطوط اللعين، ليتني مزقته أو أحرقته قبل أن تمسَّني تلك الرعدة كلما هممت بقراءته.

تناولت قرصًا من الخبز اللدن وغمرت في ركية النار "كنكة" صغيرة ملأتها بالماء ووضعت عليها قليلا من الشاي، وكثيرًا من السكر، ورحت أقضم القرص وأستمتع برائحة الشاي وهو يفور لأعلى "الكنكة"، رائحة تشعرني وكأني في حِجر أبي، أيام كنتُ صغيرا، رائحة الشاي المغلي في كنكته الكبيرة السوداء من أثر هباب النار، كنت لا أشرب الشاي كأي طفل صغير، لكن رائحة عرق أبي ورائحة الشاي كانتا تميزان طفولتي.

في الصباح كان عليَّ أن أقطع المسافة التي قطعتها بالأمس؛ ولأنه لا يمكنني أن أمضي إلى أبعد من هذه المسافة التي قطعتها بالأمس سأغير اتجاهي، وأجعل هذه المرة الصخرة عن يميني وأتجه جنوبًا ربما أعثر على الشجرة، ما يهمني ألا أضل عن خيمتي وأعود حتى ولو ببعض الحطب، سِرت مع شروق الشمس مقدار ساعتين، حتى رأيت ظلال شيء يبدو من بعيد، لون غير لون الرمال الصفراء التي تلوِّن الكون كله، حثثت السير رغم الجوع الذي كان يعصر معدتي، عندما وصلتُ وجدت بقايا خيمة قديمة ممزقة بفعل الريح، مثل الخيمة التي وجدتها بجوار الصخرة، لكن خيمتي كانت حديثة تصلح للسكنى وبالقرب منها بئر، كان وتدُ الخيمة قديمًا، رأيت يمامةً قدمها عالقة بالوتد، جمعت قوتي الخائرة وألقيت نفسي عليها، ضممت كفيَّ وجمعتها

https://jadidpdf.com

بينهما، اشتقت كثيرًا للحم آكله، مللت من كِسر الخبز الجافة، حتى التمر الذي أحضرته في الجراب لم آكل منه، ادخرته لوقت لا أجد فيها طعامًا، هويت بفمي ألتقم رأس اليمامة، ضربتْ بجناحيها تقاوم نهمي، وكحيوان برَّي أزهقت روحها بين أسناني، وشفتاي اللتان راحتا تمص دماءها، تسربت الدماء تجري في حلقي، أحسست بطعم لذيذ يجري بين فكيَّ، بدوت مثل الإنسان الأول، البدائي الذي يرى الطبيعة كما هي، بِكرًا بدون رتوش، ويَطعم كل شيء، أخرجت رأسها ورأيتها مستسلمة بين يديَّ، ألقيتها بجواري، ورحت أشعل النار في بعض الحطب المتناثر حولي، نتفتُ ريشها وعصرت ما تبقى من دماء بفمي، لففتها في ليف نخيل وجدته بين أطلال الخيمة، دسست الليفة وبها اليمامة وسط ركية النار التي هدأت ألسنتها وبقيت متوهجة، تركتها حتى شممت رائحة اللحم المشوي، أخرجت كسرتي خبز من سيالة جلبابي، بللتهما بالماء ووضعتهما في سيالتي مرة أخرى، بكعبين بوص أخرجت الليف الذي احترق وظهرت اليمامة حمراء كثمرة الدوم، ألقيتها في حِجري، خشية أن تسقط على الرمل، أخرجت كسرتيَّ الخبز، ورحت أقضم بلذة قضمة خبز وقضمة من جسد اليمامة، مرَّت غيمة ثم أختها أحسستُ بالراحة تحت الغيم، شربت ماء من الجالون، وبالرمل نظفتُ يدي، غلبني النوم لما هبَّت نسمات طرية جلبتها الرياح التي ساقت الغيم، استيقظتُ وشمس الأصيل ترسم ظلالا متراقصة،

https://jadidpdf.com

والغيم هرب بعيدًا عني، لطمت على وجهي، سأهلك هنا ولن أستطيع الوصول إلى الخيمة، جلست وقتا أفكر في مصيري الذي يدفعني دوما للهلاك، بدأ المغيب يزحف ومعه يزحف الخوف ليستقر في قلبي، نظرت إلى الخيمة سأشعلها طوال الليل.

لَوْ غَابَتْ عَنْكَ النَّارُ سَتَهْلَكَ، السِّرُّ كُلُّه في النَّارِ.

تذكرتُ هذه العبارة التي قرأتها في المخطوط، الذي يبعد عني الآن وربما لا أراه مرة أخرى.

جمعت كل ما وجدته من الحطب حول الخيمة، قبل حلول الليل، أمامي الآن كمية كبيرة منه قد تجمعت في المكان الذي أكلت فيه اليمامة، عندما هبط الظلام كانت بضع غيمات تتراقص فوقي أشعرتني بالاطمئنان، ماذا لو ثار الرعد في جوف السماء، والتمعت ناره، سأقتبس منه قوة تحميني، ألم يخبرني بذلك:

كُلُّ مَا مِنْهُ النَّارُ، فِيْهِ أَمَانُكَ.

بدأتْ ألسنة النار تتراقص أمامي وهبَّت الريح فكادت تنطفئ، غيرتُ من جلستي لأواجه الريح، حجبتها عن النار، ورحت كلما تغير اتجاه هبوبها أدور لأداريها، وكلما خبتْ غذَّيتُها بقطع من الحطب فترتفع ألسنتها، هدأتْ قليلا فبدأتْ صغار الذئاب بالقرب مني تتقافز، تزحف رويدًا مني ويزحف معها الخوف ليستقر في قلبي ماذا لو انطفأت النار

https://jadidpdf.com

سأكون طعامًا شهيًا تقدمه أمُّ هذه الذئاب لصغارها، مع تقافز الذئاب بدأ الغيم في السماء يجاوب حركتها، يجري مسرعًا ويحجب الهلال الوليد، والنجمات التي تُحجب كلما تراكم السحاب، أجهزتْ النار تمامًا على كل الحَطب الذي جمعته، بدأتُ أُقَطع من الخيمة الممدة بجواري، وأُلقي بها في ركية النار، فتذكو وترتفع ألسنتها ويبتعد الذئاب، بدأتُ أُقطِّع من الخيمة البالية، والتي لم أجد عناء في تقطيعها فبمجرد الإمساك بها أجد يدي ممتلئة بقطعة كبيرة، أخذ الوقت يمضي ببطء وقماش الخيمة سوف ينتهي، والنار سوف تخبو، الفجر يزحف وخيوط ضوئه مختبئة خلف الغيوم التي لم أنتبه أنها تزاحمت حتى غطت وجه السماء كله، آخر قطعة قماش كانت في يدي ألقيتها في يأس، ولفتة إلى السماء تتوسل إليها، كان بياضُ الصبح كاللبن وتبدَّت الأشياء بوضوح، رأيت الكون بلون الحليب، شعرت بالجوع يقرص معدتي مرة أخرى ولم يكن معي أيُّ طعام آكله، ضحكتُ عندما تذكرت اليمامة التي التهمتها بالأمس، وشربت دماءها، لن تتكرر وتأتي واحدة مثلها وتعلق في وتد خيمة بالية، من المؤكد أنها ضلت طريقها وحطت هنا تلتمس طعامًا أو حَبًا متناثرًا، الآن عليَّ الرجوع ونسيان التفكير في هذه الشجرة التي أتعبني البحث عنها، حملتُ جرابي على كتفي وسرت في الاتجاه الذي جئت منه موليًا ظهري للخيمة التي لم يبقَ منها إلا أربعة أوتاد، أتلفَّت إلى السماء، منتظرًا الشمس، كان غيابها خلف الغيم مريحًا لي

https://jadidpdf.com

من وهجها الذي يحرقني، وأنا أسير تحتها، لكني كنت ممتلئًا بالبرد الذي نخر جسدي طوال الليل ولم تستطع النار أنْ تدفئني، بدون خيمة في الصحراء يصبح البرد كطلقات رصاص قوية تخرق جسد الإنسان، طال سيري وانتظاري ظهور الشمس حتى بدأ الجو يصطبغ بلون رمادي، أحسست أن الوقت كأنه يتراجع ليعود إلى الوراء، ويلتحم مرة أخرى بالليل، الرياح تهبُّ بقوة وتلطمني بلا رحمة، إلى أين ألجأ لأحتمي من هذا الطوفان الذي يزداد كلما واصلتُ السير، قطرات مطر هطلت، نثرت على وجهي رذاذها، تفاءلتُ للحظة، في أول الأمر تذكرت الخير الذي يأتي مع هطول الغيث غاب عن خاطري الدعاء الذي لقنني إياه شيخي وأنا صغير، حاولت التذكر بدون جدوى، ثم لمَّا ازداد المطر، ذهب التفاؤل تماما بمجرد انثياله، ورحت أفكر في النجاة بدلا من التفكير في الدعاء الذي حتما لن أتذكره وسط اشتداد الأزمة التي توشك على تطويقي.

تأكد لي هلاكي، الضبابُ حجبَ الرؤية أمامي، والرياح عاقتني عن السير، دفعتني هبة عنيفة تحملها عاصفة ممتلئة بسفيف الرمال، رمتني على الأرض فارتطمت بها، وتلطخ وجهي بالرمال المبتلة بماء المطر، وانهلَّتْ سيول المياه مختلطة بندف الثلج، أغمضت عيني ليسكن الرعب الذي يأكل روحي، ووضعت يديَّ على رأسي لأحميها من كرات الثلج التي ترجمني بها السماء، إن لم أمت غرقًا بالرمال التي تحملها

https://jadidpdf.com

الرياح ثم تأتي المياه فتتركها كالوحل فوقي، سأموت بهذه الحجارة التي تخترق رأسي، رُحتُ في شبه غيبوبة منتظرًا الموت القادم.

بلا رَحمةٍ عادَ المطرُ يجلدُ الليلَ بقوةٍ، ويثقبُ الظلامَ ببرقِه، ويجرحُ الرعدُ السكونَ، كان عليَّ أن أصحب معي فرسًا أو جملا كي يعينني على التنقل في الصحراء وسبر غورها، بقدميَّ النحيلتين هاتين لن أستطيع بلوغ ما أريد.

https://jadidpdf.com

https://jadidpdf.com

وقيل لي
مِنح المعرفة تصحبُها الأحزان

جاء متخبطا بين شواهد القبور يقلب بصره في حيرة، تترنح رأسه دائرة كأنما يريد أن يلقي ثقلا يحمله فوق كتفيه، لما وصل إلى مجلس "أبو نوح" بجوار الزير وضع الحقيبة الصغيرة بين يدي "نوح"، أطلتْ الأسئلة من عيني "أبو نوح"، الأستاذ صبري دخل المدافن بدون هذه الحقيبة وخرج يحملها ويلقيها على حِجر ابني، قرأ صبري ما يجول في عيني الأب، أطل عليه بنظرة توحي بأن الرجل قد خرِف وما عاد يعي ما يشاهد، الأب نظر لـ"نوح" ليتأكد من سلامة عقله، هل وصل لهذه المرحلة؟ هل العينان تم تصفية البصر منهما، وما عادتا تبصران.

بطرف جلبابه مسح عن جفنيه قطرات ماء انسالت فأحرقت عينيه فأغمضهما ولما فتحهما بصعوبة كان الأستاذ "صبري" قد اختفى،

https://jadidpdf.com

و"نوح" يقلب في الكتب الموجودة داخل الحقيبة بعد أن فتحها وفرش ما فيها على حِجره، سأل ابنه:

- فين الأستاذ صبري؟

أجابه "نوح" وهو يقلب في كتاب دون أن ينظر إليه.

- استأذن ومشي.

-رجل غريب يا "نوح" الأستاذ صبري، الرجل دخل قدامنا المقابر من غير "الشنطة" ورجع وهي في يده.

كان "نوح" مشغولا فيما بين يديه، فلم يعرْ أي اهتمام لما قال أبوه.

- الرجل ده غريب من يوم ما حاول حرق قبر والده وبعدها اعتذر بكلام سخيف، وأنا شاك فيه، لولاك و"أبو عزيز" أنا كنت طردته من قريتنا زى ما كان أهل البلد عايزين.

عينا "نوح" تحدقان بقوة ونفاذ إلى الكتاب في حين واصل أبوه الكلام.

- "مِصدَّق" ابن الكلب سايب ولده يعربد، ولولا صحبة السنين الطويلة، كنت قتلت الولد الفاسد ده.

حدَّث نفسه قائلا " تطرد واحد وتقتل التاني، لا طردت ولا قتلت"

- "نوح".. مالك؟

- النار.

https://jadidpdf.com

مالها يا بني، مالها النار؟

- أنا هقوم يا أبويا أشوف فين الأستاذ صبري.

عندما ذهب "نوح" إلى استراحة الأستاذ صبري، صعد فورًا إلى حجرته طرق عدة طرقات بعدها خرج جارٌ له يسكن في الحجرة المقابلة، أخبره أنه حمل حقيبته، ويبدو أنه سافر؛ لأنه أخذ الحقيبة الكبيرة التي لا يأخذها إلا إذا كان مسافرًا سفرًا طويلا، تركه "نوح" بعد أن شكره، وذهب إلى المعبد كان عم نجاتي يجمع في أشيائه ويحدث الشرطي المكلف بحراسة المعبد ليلا، جرى عليه وسأله أين ذهب "صبري"؟ امتعض "نجاتي" لعدم إلقائه السلام وسؤاله عن "صبري" مباشرة، رد عليه قائلا:

- سافرتَ الأقصر؟

عندها تذكر "نوح" هناء والكاميرا التي أخذها صبري وقال إنه سيوصلها لها.

- الأستاذ صبري سيوصل الكاميرا.

- عايزه في ايه؟

محتاجه في شيء ضروري؟

- و"عزيز"؟

https://jadidpdf.com

- ماله؟

- يا "نوح" شخص طيب مثلك يصاحب واحد مثل "عزيز" وآخر مثل "صبري".

ارتبك "نوح" وقال:

- يا عم نجاتي أنا بسألك عن صبري تقول لي "عزيز".

أشار "نجاتي" في خبث وهو يغمز بعينيه إلى ما بين فخذيه ده "عزيز"، أما صبري فأشار إلى رأسه ولف أصابعه كعلامة للجنون.

تضاعفت أحزان "نوح" بعد كلام "نجاتي"، صديقاه اللذان لم يألف أحدًا غيرهما يلمزهما "نجاتي" بهذا الشكل، وهو لا يستطيع أن يدفع عنهما الأذى، نعم رأى من قبل خطيئة "عزيز"، والآن يضع صبري بين يديه مِفتاح العذاب.

عاد "نوح" فوجد "مِصدَّق" قد انضم إلى جلسة أبيه، سأله عن "عزيز" فقال إنه لم يره منذ الصباح، حمل حقيبة "صبري" وغادر، قبل أن يختفي زعق أبوه بصوت عالٍ:

- راح فين ابن الكلب؟

- سافر.

قالها "نوح" بصوت لن يسمعه أبوه ولذلك لوح بيديه مشيرا إلى الرحيل.

https://jadidpdf.com

عاد إلى غرفته في المنزل، قلَّب في الحقيبة وأخرج المخطوط، كان ورقه أصفر، لا يتجاوز مئة ورقة بغلاف متآكل الحواف ذات الألوان الحمراء الباهتة، على الغلاف الخارجي كانت هناك كلمتان مكتوبتان باللون الذهبي "سارق النار"، تحتها كلمتان أخريان باهتتان وغير واضحتين، قلب صفحة الغلاف فوجد الكلمتين وتحتهما توقيع بخط اليد، حاول قراءة التوقيع لكنه لم يعرف، بدأ يقلب الصفحات، خمس صفحات وجدها صفراء بلا كتابة إلى أن وصل إلى الصفحة السادسة، كانت الصفحات مرقمة بأرقام عربية وليست هندية كما يكتب العرب، لم يستطع أن يمسك "نوح" بالكتاب الذي سقط من بين يديه، النعاس حلَّ عليه فترك الكتاب ونام فجأة ورأى فيما يرى النائم:

"صبري" يجري وراء "هناء"، وهي تجري بكل قوتها التي لم تستطع أن تمكنها من الإفلات منه، عندما وصل بالقرب منها- وقبل اللحاق بها بخطوتين- أمسكها من ضفيرتيها المعقوصتين بيديه الاثنين، وفجأة طلت النار من بين ضفيرتيها، صرخت مستغيثةً به وهي تقول " ابتعد عني، أنت ونارك أحرقتني، ارحمني، أرجوك، رجَّها وهو يلتصق بها، قرب فمه من أذنها قال لها" أنا أسلمت النار لشخص غيري"، "أسلمتها! ما هذه النار التي بين ضفيرتي" "هذه ناري وشوقي" ولقم حلمة أذنها وأخذ يمصها، زادت صرخاتها، التصق بها أكثر، ونتر من عليها ثيابها فبدت عارية، صرخت مهددة "اذهب بنارك"، ناري عند

https://jadidpdf.com

"نوح" الآن" ضمها إليه ووارى عضوه فيها"

استيقظ "نوح" وهو يشهق ومَنيه يندفع مبللا ثيابه، رأى أول ما رأى نارًا تسري في الفضاء من شباك الغرفة، كان المصباحُ مضاءً، نظر في ساعته لم تكن قد تجاوزت الثانية، لم ينم أكثر من ساعتين وقعت عينه على المخطوط، على الصفحة السابعة كانت الكلمات تصدم عينيه قرأها بمجرد أن رأى:

النار .. النار قدرك؛ نار في الفضاء، نار في القلب.

الرحلة مكتوبة عليك، ستتبعك أينما ذهبت نارٌ.

نارٌ تحرسك إن غبت، نار تأكلك إن غابت عنك.

وسترحل هاربا من ظلين: ظل الحنين الذي لا يفارقك.

وظل الغربة المكتوبة عليك.

انتهى "نوح" من قراءة كل ما هو مكتوب في الصفحة، وطفرت عيناه دمعتين، هتف بصوت مسموع:

"بدأت أحزانك يا "نوح".

أين "عزيز"؟ أين صبري؟ أين أسماء؟

كررها أين أنت يا أسماء؟

نام وهو ينادي من لا يسمعونه، في الحلم لم يرَ شيئا لكن توالى قذفه

https://jadidpdf.com

مرتين، صحا في الصباح متعبا، اغتسل ثم توجه إلى المعبد.

شمس الصباح جميلة تلقى على الكون ألقا مبهجًا، لكن نفس "نوح" مغمورة بالحزن.

اجتاز الممر الذي يبدأ بسلم تنخفض درجاته ثم تُفضي إلى باحة مبلطة، تتناثر على جوانبها تماثيل مهشمة الوجوه والأركان، سار حتى واجهته الأعمدة الاثنا عشر وظلالها التي تلقيها على الداخل، تنسَّمَ رائحةَ الهواء القادم من بوابة المعبد، الجالس أمامها "نجاتي" فاردًا قماشة عليها قرطاس مفتوح ومفلوت منه أقراص طعمية ساخنة وبجواره كيس بلاستيكي فيه أرغفة خبز، حزمة بصل أخضر بجوراها طبق صغير مملوء بالباذنجان والفلفل المَقلي، "نجاتي" يلتهم اللُّقم ويصدر صوتا يصل لـ "نوح" الرافع رأسه ينظر لأعلى المعبد.

- تعال يا "نوح" افطر بسم الله.

- معلش يا عم نجاتي، أنا مليش نفس، أنا داخل جوه.

- يا بني تعال، ومتزعلش من اللي حصل امبارح، أصلك مش عارف صبري الهاشم كويس.

سمع "نوح" اسم صبري وسرت في جسده رعدة، كان يود أن يعرف قصة هذا الرجل كاملة لكنَّ هاتفا داخليا حثه للدخول، اجتاز البوابة غير عابئ بإلحاح نجاتي عليه بأن يأكل معه، مرَّ بصالة المعبد الأولى،

https://jadidpdf.com

ثم تجاوزها للثانية، وسار حتى ولج الممر المفضي للخلاء، ابتعد عن الحمام الملكي، المعبد جنائزي، وهـذا مكان تغسيل الموتى، ومحاسبتهم أيضا، الموت من حوله في كل مكان، طقوسه تحوطه، تؤطر حياته، في المدافن عند أبيه وفي المعبد هنا، ظل يزور المعبد منذ سن الحادية عشر عندما قامت المَدرسة برحلة إلى المعبد، من وقتها وقع فريسة لعشق هذا المكان ولم يكفّ عن التردد عليه، إلى أن لطمه "نجاتي" بكلمة عندما كان يهم بالالتحاق بالكلية، وهو يشرح لأحد الـزوار، نطقها وهـو لا يعرف وقعها على "نوح": "هذا معبد جنائزي"

هل كان قدرك يا "نوح" أن تخالط الموتى، الهدوء والسكينة التي تشعر بهما وأنت في المعبد، والشعور نفسه يسكنك وأنت وسط شواهد القبور، كأنك مخلوق مثلهم، تأنس بهم، تذكَّر يوم أن أرسله أبوه لينير بـ "الكلوب" لعم "أبو ضيف حسانين" الحفَّار كي يحفر لدفن بعد صلاة العشاء، ووصل هناك فلم يجد الرجل، سار بين المقابر يحاذر أن تطأ قدمه الواطئ منها والمساوي للأرض والذي تهدمت حوافه، الظلام من حوله كثيف، يدير رأسه باحثا عن الرجل دون جدوى، تأمل المقابر وشعر بالطمأنينة وحدث نفسه أنت وحدك وسط آلاف الموتى، أين العفاريت؟ أين الجان؟ هذه مخلوقات لا تخيف الإنسان، الإنسان هو الذي يزعجها فتغضب عليه وتؤذيه، أحس براحة نفسية لن يشعر بها

https://jadidpdf.com

إلا عندما يتخلص من أحزانه، هناك بعيد، بعيد جدا، حيث الرحلة الموعود بها، ستتسرب الأحـزان من قلبه وتـذوب في صمت الكون، وستشربها رمال الصحراء الملتهبة.

ولَّى وجهه للشمس، كان يودُّ أن ينظر إليها ويواجهها، يطل في عينيها، لو استطاع إمساك النار بيديه، وضمها بين أصابع راحتيه، وخنقها حتى تلفظ دخانها لأمكنه الآن غرس نظرته في بؤبؤ الشمس وتذكر ما قرأه في الصفحة الثامنة:

كلُّ مَا مِنه النَّارُ فَهُوَ مُقَدَّسٌ، سَيَحْرُسُكَ أو يُهْلِكُكَ.

على الرمال جلس ومد رجليه، وانحنى أمـام جبروت الشمس، ولاها ظهره فرأى أمامه "الحمَّام الملكي"، رأى امرأة عجوز أجنبية ترتدي جلبابًا رجاليًا أبيضَ، ترفع يديها للسماء وشفتاها تتمتم بالدعاء، عرف من المرشد السياحي الذي كان يرطن بلغة إنجليزية ترجمها له بعد أن فرغ من الشرح للسياح، أن ثمة اعتقادا بأن الدعاء هنا مستجابٌ، حيث جاءت "إيزيس" تبحث عن أشلاء زوجها أوزوريس، الأسطورة كلها مروية على جدران الممر المفضي لمنطقة الحمام الملكي، الواقعة مصورة بدقة، حتى نجاتي حفظها من على ألسنة المرشدين، وكررها لـ "نوح"، الميت كان يمر عبر هذا الممر أو الدهليز كأنما يخرج من رحم الظلمة إلى متسع الآخرة، وهنا ينصب على ميزان، ينتزع قلبه ويوضع على إحدى كفتي الميزان وعلى الكفة الأخرى توضع ريشة،

https://jadidpdf.com

فإن ثقلت الريشة فهذا معناه أن الميت كان طيبًا فيُحنَّط، وتُحفظ الجثة لحين العودة والبعث مرة أخري، وإن ثَقُل القلبُ فهذا يعني هلاك الميت وذهابه إلى نهايته الأبدية.

حياة الفراعنة كانت لها قيمة مثلما كان للموت قيمة كبيرة ترد الحياة مرة أخرى للبشر، الفناء عندهم مستحيل، الخلود للبشر هو السيف والدرع اللذان يواجهون بهما الإلهة التي تعد مقصلة العذاب في ارتياح، عاندوا الآلهة واكتشفوا لغة يقهرون بها الفناء ويقدسون الخلود، كان عليهم أن يدقوا المتاريس ليواجهوا طغيان الإلهة وسدنتهم في الأرض، كل شيء جاهز ومُعدٌّ لقهر شوكة المُتجبر إن لم يكن في الدنيا فليكن في الآخرة.

خرَّ الوجعُ من "نوح"، وطفحت أحزانه عندما تذكر مصير الموتى في مدافن أبيه والموتى هنا، هناك حيثُ الدود والعفن وانبعاج الجثث المنفوخة، ثم الفناء النهائي، بلا عتادٍ أو أسلحة تنقذه في رحلته للأبدية.

عاد "نجاتي" بعدما انتهى من تناول إفطاره، نادى "نوح" ليبتعد عن الشمس التي تحرق ظهره،

- " تعال في الضِّلَّة يا بني"

نظر له "نوح" نظرة شاردة.

https://jadidpdf.com

- سيبني وحدي يا عم نجاتي.

كان "نوح" يتحين لحظة يخلو فيها المعبد ويخرج المخطوط من بين طيّاتِ ملابسه ويبدأ في القراءة، وصل إلى الصفحة الثامنة، كل صفحة بها بضعة أسطر قليلة لكنها تحتاج للتأملِ ساعات، ذهب نجاتي مشوِّحًا له بيده، وانصرفت السيدة الأجنبية العجوز ذاهبة إلى داخل المعبد عبر الدهليز، أخرج "نوح" المخطوط من تحت سترته، فتح الصفحة الثامنة، وجد مكتوبا عليها بالقلم الأزرق

الغُرْبَةُ والمَرْأةُ هُمَا طَرِيقَا المَعْرِفَةِ المَمْزُوجَةِ بحُرقة النَّار.

فكر "نوح" في "أسماء" التي غابت عنه منذ مدة طويلة، عرف أن قدره أن يتعذب بحبِّه لـ "أسماء"، أما الغربة فهو يعيشها خاصة بعد رحيل "صبري" و"عزيز"، أكملَ القراءةَ:

الغُرْبَةُ سفَرٌ ... الاغْتِرابُ إِقَامَةٌ.

أسفل هذه الكلمات وجد عدة أسطر صغيرة تبدأ من ثلث السطر إلى ما قبل ثلثه الأخير، لم تكن الكلمات واضحة فلم يتمكن من قراءتها.

عندما بدأ فوج من السياح في الظهور في المكان أخفى المخطوط تحت سترته، كان يظن أن ذلك سرًا لا يجب أن يعرفه سواه، قرأ في بعض الحواشي حرفي السين والراء، متناثرين، خمَّن أن هذه إشارة لإخفائه سر المخطوط، عادت نفسه تسأله: "لم اختارني الأستاذ "صبري"

https://jadidpdf.com

وأعطاني هذا المخطوط؟ لم أنظر في بقية الكتب المخطوطة ربما يكون فيها شيء جديد"، خاف "نوح" من مفاجآت تحملها له هذه الكتب يكفي ما هو موجود في ذلك المخطوط.

السياح يتقدمهم شاب يتحدث بلغة أجنبية لم تكن إنجليزية فلم يفهمها "نوح"، يتبعهم أمين شرطة تبدو فوهة مسدسه ظاهرة -من حافظتها -على جنبه، تناوبوا كلهم النظر إلى ذلك الجالس على هذه الرمال الساخنة، وقف "نوح" واقترب من "الحمام الملكي"، نظر في المياه الآسنة والشمس المنعكسة عليها، لاحظ وجود قليل من الأسماك الصغيرة، تدور حول عُشب أخضر لا يكاد يُرى لتقارب لونه مع لون الماء، الفتاة الصغيرة أخرجت كاميراتها وبدأت تلتقط صورا لبركة الماء والسمك الصغير يتلاعب ذاهبا وعائدا يدور حول العشب الأخضر الذي ألقاه له نجاتي في الصباح مع بعض لقيمات تبقت من إفطاره.

النيل يبعد عدة كيلومترات عن المعبد، فمن أين نبعت هذه المياه؟ "يتذكر "نوح" حديثه مع عم "نجاتي" في أول عهده بالمعبد، كانت إجابة "نجاتي" غير قاطعة هو نفسه لا يدري ما السر؟، قال له إنهم قاموا برفع المياه بمواتير شفط واستغرق سحبها يوما كاملا، لكنهم استيقظوا في اليوم التالي فوجدوا أن المياه نبعت مرة أخرى، هذا السر لم يعرفه أحد حتى الآن، لكنها لن تعدو أن تكون مياه جوفية،

https://jadidpdf.com

كلام نجاتي لـ "نوح" لم يكن مقنعا.

السر ... هذا هو مفتاح الحياة، المغلَّفة بأسرار كثيرة تُتعب الإنسان وتزيد أحزانه.

السر يا "نوح".. اتبع الحياة ولا تولها ظهرك وستعرف ما هو السر.

هذا ما وجده في نوتة صغير تخص الأستاذ صبري.

طلب منه أحد السياح أن يأخذ صورة معه، يبدو أن سُمرة "نوح" أعجبته، هز "نوح" رأسه بالموافقة، أعطى الكاميرا لرجل معه ووقف "نوح" بين الشاب وفتاة صغيرة، حاول أن يرسم ابتسامة، انتزعها بخوف فأظهرت الصورة ابتسامة لامعة ممزوجة بنظرة أسيانه تسيل من عينيه، في حين كان الشاب والفتاة تطفر عيونهما ألقا، صافحا "نوح" وشكراه باللغة الأجنبية التي لا يعرفها فرد عليهما بالانجليزية وهو يهز رأسه.

دخل "نوح" إلى المعبد، عبَر الدهليز، مرَّ على المقصورات المَلكية، التفت إلى النقوش التي تحكي مأساة "إيزيس" وهيَ تندب زوجها "أوزوريس" الذي مُزق إربا، توزعت أجزاؤه في أرجاء البلاد، تطير "إيزيس" من شمال الوادي إلى جنوبه، والنيل يبتلع جسد "أوزوريس" الطيب ، فعلها "سِت" الشرير شقيق "أوزوريس" وقطَّع جسده بحيلة ماكرة، واغتصب حكم البلاد.

https://jadidpdf.com

"نوح" يتذكر ما كان يحكيه له "صبري" ويكمله أحيانا له "نجاتي"، كان صغيرًا في نهاية تعليمه الثانوي، بكى عندما سمع قصة "إيزيس وأوزوريس"، كان القلب في بدء دقه، رأى وفاء "إيزيس" لحبيبها وتمنى أن تكون "أسماء" بالوفاء نفسه، حتى لو مات وقُطع لأشلاء عديدة، المهم أن تعلم "أسماء" بحبه، وتُخلص له إخلاص "إيزيس".

مرة غمز نجاتي لـ "نوح" وهو يكمل حلقات القصة المنقوشة على جدران المعبد، "إيزيس" صنعت عضوا ذكريا من الذهب، لمَّا جمعت الأجزاء كلها، كان ينقصها هذا العضو، وهي تريد الإنجاب، نُفخت الروح في الأجزاء المجموعة، وضاجع "أوزوريس" "إيزيس" مضاجعة أخيرة، وهبها ثمرة ملكية ستطيح بحكم الظالم "سِت"؛ إله الشر، كانت الثمرة هيَ الملك "حورس"، ملك شاب وسيم سينشر العدل في الأرض التي ملئت جورا وظلما من "سِت" عمه.

نظر "صبري" إلى "نجاتي" وقال له:

- يعني الحكاية كلها نسيتها وافتكرت العضو الذهبي منها!

لحظتها نظر "نوح" للأرض وابتسم ابتسامة خجل والتمعَ وجهه وهو يداري خجله.

سار "نوح" حتى وصل إلى القاعة الثانية ورأى الأعمدة التي تنبت من الأرض ضاربة برؤوسها في السقف المهيب، ثلاثة صفوف من بينها

https://jadidpdf.com

ممرات تفضي للمقاصير الملكية السبعة، التي لم يكن يدخلها سوى الملوك، ومن أمامها تُحمل الجثة لتخرج إلى منطقة الحمام الملكي؛ مراحل متدرجة تمثل حياة الإنسان منذ كان في ظُلمة الرحم حتى خروجه إلى عالم الأبدية المتسع.

بعدما عاش فترة منفيًا في الصحراء، بُعث "أوزوريس" مرة أخرى وتقلد مملكة الموتى

"وتكرر النداء في أذنيه، وهبَّت رائحةٌ تدعوه للصحراء"

أخذ "نوح" يفكر في مصير "أوزوريس" ولماذا جلبت له ذاكرته قصته التي سمعها هي وغيرها كثيرًا من المرشدين السياحيين فضلا عن حكايات "صبري" و"نجاتي".

في المخطوط إشارة إلى شيئين؛ المرأة كجالبة للنار التي تستعر في الأحشاء إن لم يحدث الوصل واللقاء، ويظل الشوق يُذْكي النارَ؛ فإما أن تأكل النار الأحشاء كما أكل النسر كبد "برومثويس" وهو مقيد على الصخرة.

الشيء الثاني، النفي إلى الصحراء مثلما حدث مع "أوزريس".

هل عليه أن يختار بين أمرين مُرَّين؟!

بدأ القلق يسعى في أوصال "نوح"، وهو يقرأ في الكتاب الثاني الذي

https://jadidpdf.com

جلبه من حقيبة "صبري"، هذا المخطوط صغير جدا لا يتجاوز الثلاثين صفحة، بجوار أبيه الممسك بكعب "الجوزة"، يسحب منها الأنفاس ويطلقها في الهواء.

قال "أبو نوح" له: هل تذكر عندما جاء الأستاذ "صبري" المخبول يريد أن يهدم مقبرة عائلته ويبني مكانا منها قبرًا من الرخام، من قبل حرق المقبرة والآن يريد أن يبني مقبرة من الرخام من ثلاثة طوابق، حول المقبرة سيحفر جدول ماء من جميع جهاتها وتصب نافورة ماء صغيرة الماء لتجري في الجدول وتعود مرة أخرى لتدفعها النافورة، حلمٌ ودَّ الأستاذ "صبري" أن يحققه ربما ليكفر عن خطيئة ارتكبها يوما ما في حق أبيه الساكن في المقبرة، يعرف "نوح" الآن أن الأستاذ "صبري" كان مجبرا على ما فعل، ربما يأتي اليوم الذي تتكشف فيه الحقيقة، ويستطيع أن يحكي لأبيه عن مأساته التي يعاني هو منها، دفع الأستاذ "صبري" بكرة النار ليتلقفها هو ويكتوي بنارها.

"بروميثوس" سرق النار من الإله "زيوس" المتجبِّر ومنحها للإنسان وواجه مصيره ببسالة، أراد أن يمنح الإنسان المعرفة والنور ليتمرد بقوة عقله وقلبه الذي امتلأ ضياء ليواجه ظُلم "زيوس" وجبروته الطاغي، تلقى الإنسان قبسًا من نار المعرفة، سعى في الأرض واعتلى الأسطح التي بنى طوابقها، ومرق بسرعة يسابق الزمن الذي يأكل عمره، داس على أخيه الإنسان، وبدلا من أن يواجه البغاة والظالمين،

https://jadidpdf.com

واجـه أخـاه الإنسـان؛ سلبه وقتله وأكـل لحمه وشـرَّد عياله، ورمَّـل امرأته، الخطيئة واحدة والعقاب كان قاسيًا، "أوزوريس" يقطع إربا و"بروميثيوس"، يُنفى في الصحراء وهو مصلوبٌ يأكل من كبده النسرُ.

https://jadidpdf.com

https://jadidpdf.com

مَتْنٌ ثالث

حام حولي النسرُ يضرب بجناحيه، كان رحيمًا بي لم يأكل من جسمي ولا حتى من كبدي، كنت ملقى لا حول لي ولا قوة، الرمال تعفرني وندف الثلج تتراكم على جسدي، النسر من فوقي، وجبة شهية أمامه لكنه يدور حولي ولا يقربني، أتخيل الآن دعاء أمي لي وقلقها عليَّ، تطوف على بيوت جارتها في القرية تبحث عن بيضة النسر كي تكسرها وترمي زلالها في وجه الشمس الساطعة هناك بقوة والمختفية هنا خلف السحب المتراكمة، ستجد بيضة فوق مئذنة الجامع الغربي يحضرها لها عامل الجامع، يخبرها أن عدة نسور تسكن فوق المئذنة تبيض وتفقس وتتناسل بكثرة ولا يقربها أحد، مَنْ في قريتنا يهتم بالنسر وبيضاته وفراخه الصغيرة التي تستقبل أمهاتها في نهاية اليوم منتظرة طعامها؟ خبأت أمي البيضة في عِبِّها وجرتْ بها إلى البيت، صعدتْ فوق السطح، نظرت للشمس ثم غضَّت بصرها لما أحرقتها أشعتها، كسرتْ البيضة ثم

https://jadidpdf.com

ذرَّت زلالها في وجهها، جاءت الجارات يواسينها، قالت لهنَّ: إن "نوح" ابني في محنة وأنا أدعو اللّه منذ أن صليتُ الفجر"، ترفع كفَّيها توسلا للّه، جارة تخبرها أن ابنها تاه في الصحراء، وهو يبحث عن صديقه الأستاذ "صبري"، تنفي أمي كل ذلك وتشوِّح بيدها قائلة إن ابني سافر وسيرجع، بقلبها تدرك محنتي وعقلها لا يستوعب لماذا رحلت؟ ولماذا زرتها في المنام؟ أُخبرها بمصابي وبضرورة إحضار البيضة كيلا أهلك في الصحراء وحدي، النسر يقترب مني والهواء الذي يصدره خَفْقُ أجنحته يزيل ما علق بي من الرمال ها أنا أرى الدنيا مرة أخرى؛ كثبان الرمال ممتدة أمامي، الكون من حولي غلافٌ مضبَّب، بصقتُ الرمال التي ملأتْ فمي، بعدها تقيأتُ كل ما في جوفي، ووجدت خيوط الدم مرسومة في لعابي، الخيوط الحمراء نفسها التي يبصقها أبي، أمي حتما ستذهب إليه، ربما لأول مرة تأتيه إلى المقابر، تمسك بخناقه تلومه على تركي هائمًا، أُلاقي حتفي، يتخلص منها أبي، يريد نهرها لولا علمه بأنها أم يأكل كبدها القلق على ابنها الوحيد، تلومه بحدة على إقامته وسط الأموات مدعيًا حراستهم، "كنت حرست ابنك أحسن"، تقولها أمي ويتسرب دمعها ويسيل من أنفها المخاط فتمسحه في شالها، "نفعوك الأموات، حتى قبر لـ "نوح" لن تجده لتحرسه"، يعصر الألم أبي، يفكر في دفعها كي تعود إلى المنزل، صوتها يعلو، هو نفسه يريد أن يبكي، يختنق دمعه المحبوس خلف جفنيه، أعرف أبي

https://jadidpdf.com

في حزنه، عيناه المزنوقتان تمسكان الدمع في خشوع، أرى كل ذلك وأنا أقاوم آلام ضلوعي المتكسرة، على صفحة الغيم أشاهد أمي وهي راجعة إلى المنزل فاقدة الأمل في رجوع أبي إلى صوابه، يحط همه بعد رحيلها عنه في تدخين "الجوزة"، ينساني أو يدَّعي ذلك، لكنه بقلب الأب الواثق في رجوع ابنه ينتظرني، في المساء ينظر لعلِّي آتي من أول الشارع، وفي الصباح، يقف الوقفة نفسها، يتوقع مجيئي في هذين الوقتين، أو آتي عليه فجأة، الآن يغادر النسر ثم يزحف الغيم من وجه السماء كأنه ضرب بجناحيه الغيم فتزحزح وبدأت الشمس ترسل خيوطها الذهبية، بدت لي هضبة قريبة، واصلت السير بدون جرابي الذي يحمل بعض التمرات وجالون الماء وكِسَر الخبز، ظهور الهضبة الصغيرة والشمس من فوقي زرع في نفسي الأمل، لما اقتربت منها وجدتها صخرة كبيرة تخفي وراءها ثلاث صخور أصغر فأصغر، صعدت فوق الأولى أعلاهم، نظرت علِّي أتبين شيئًا، كان يهمني معرفة الوقت، لا أدري كم من الوقت مرَّ خلال العاصفة الرملية التي تلاها سقوط المطر والثلج، نزلت من على الصخرة الأولى، وصعدت الثانية كان بينها وبين الصخرة الثالثة مسافة ثلاثة أمتار، لم أُصعِّد بصري للأفق، عيناي انحطتا للأسفل لأجد ذئبة تحتضن أولادها تحميهم من المطر، وتملِّس على شعر أجسادهم، كانوا خمسة: اثنين منهم يرضعان من أثدائها بنهمٍ والثلاثة الباقين راقدين بجوارها، نظرتْ الذئبة لي

https://jadidpdf.com

بأنيابها، "هلكت يا "نوح" أين أنت يا أمي؟" أين أنت يا نسر؟"

تسمرت قدماي فلم أستطع التحرك، القدر يلاحقني لكني لا أود الموت بعيدا عن الصخرة والبئر، هناك مكان خيمتي، الحياة هناك ترسم لونا أخضر وسط صفرة الرمال الكئيبة، فكرت أن أزرع هذه البقعة، بجوارها سيكون قبري، يأتي الراحل عبر الصحراء يستريح وسط هذه الواحة الصغيرة، يترحم عليَّ ويسقي الزرع كي لا يموت عطشا، الموت هناك أرحم، سأكون ثالثَ مَنْ يموت في هذه البقعة مع الطائر الذي بنى عُشه في الدلو، والثعبان الذي آنستني روحه، ستكون واحتي سفينة "نوح" التي يأوي إليها الحالمون، أتمنى أن يلحق بي الأستاذ "صبري" أو يعلم أبي فيأتيني يحرس مقبرتي ويهش عنها الذئاب بنار مجمرته التي لن تنطفئ، وبالليل تؤنسني حكاياته مع عم "مَصدَّق"؛ حكايات ليست عن الموتى "أنا مللت حكايات الموتى يا أبي، سأكون بينهم ولن يكفُّوا عن الحكي، سيقضون وقتهم في اجترار أمانيهم وأحلامهم المُحبطة التي لم يحققوها في دنياهم، ربما في استعادتها يتحقق ولو قدر قليل منها"

ستستمر صبوات عم "مِصدَّق" وعم "نجاتي" الذي كرر عليَّ مرارًا قصة عضو "أوزوريس" الذهبي، لا أتذكر الطريقة التي نطق بها اسم "أوزوريس" لكن أتذكر عينه وهي تغمز مبسوطا من الحكاية التي أعجبت "عزيز" وكان يتندر بها في جلستنا أحيانًا.

https://jadidpdf.com

سَيَبْنِي أبي سورًا كبيرًا حول مقبرتي، وسيبني فساقي بجانبها يرصها بعناية، ويتولى دفن معارفنا وأقربائنا ومن كنت أحبهم وأرى محبتهم تنمو في قلبي، ستتسع المقبرة وسيهدم السور ليبني سورًا يسع كل الوافدين الجدد، من الطين سيبنى له غرفة ينام فيها، أمامها زير وشجرة، الزير للشرب، يملأه من البئر كل يوم، والشجرة يستظل بها، ستكون أول شجرة مغروسة في قلب هذه الصحراء، تتبعها شجرة ثانية وثالثة، ثم تُزرع أشجار عالية بجوارها أشجار أعلى، بينها تنبت زهور بيضاء وحمراء وصفراء، يتعهدها أبي كأنها أبناؤه، يرعاها ويطل عليها ويراها تكبر أمام عينيه ثم تذبل، فيتذكر أن هناك زمنا يُفني كل حَيٍّ ويُمِيتُه، يعود الربيع لتعود الأزهار مرة أخرى ومعها يعود الأمل في الحياة، يفرح أبي ويقرأ لي الفاتحة، ثم يردد قصار السور، سيتجاهل من أخبره أن القرآن لا يصل للميت، سيدير الراديو على إذاعة القرآن، ولن يحرك المؤشر لإذاعة أخرى، سيسمعني القرآن بأصوات مختلفة، وبالليل يجلس يحادثني كي لا أستوحش الليل، ويحكي لي ما حدث في الواحة الجديدة، يطمئنني على "أسماء" وأحوالها هي وأولادها الذين يكبرون وينتقلون في تعليمهم من صف إلى صف متفوقين مثلما كانت أمهم، ستكون لها بنت كبرى ترث عنها ابتسامتها التي كانت تشربُ الحزنَ من وجهي وتسكبه في قلبي لينمو وتنبت له فروع وأغصان، واللآلئ التي تشرق كلما ضحكت، وسترث عينيها الملونتين بسحر

https://jadidpdf.com

الدنيا، سيقرفص أبي ويحكي لي عن باقي أبنائكِ يا "أسماء" هو يشبهني، يضحك أبي كأني لم أصدقه، "آه والله يشبهك أنتَ وصغير بعفرتّك" التي انقلبت هدوءًا وأحزانًا متراكمة عندما كبُرت، وسمرة وجهك التي كانت خفيفة، أقول هذا الولد سيكون مثل "نوح" لا لا "نوح" أحزانه كثيرة، ولا أحب لحبيبة ابني أن تحزن على ولدها كما حزنتُ أنا على ابني، لن تصبر؛ لأنها لم تتعود مثلي على العيش وسط الأحزان على الراحلين، ولم تبدد عمرها في انتظار توديع الموتى، الحزن له ناسه، وأحزان "نوح" لن تَمسَّكِ أبدًا"، يخاطبها أبي كأنها معنا جالسة، يا أبي خاطبني أنا. احْكِ لي عنها، لكن لا تذكر لها كلمة "أحزان نوح" لأنها هي لا تدري من "نوح" أصلا، الذي لا تعرفه أني أحببتها بيني وبين نفسي، ولم أُطلعها على حبي أبدًا، بالله عليك ابنك الخجول هل كان يملك جرأة البوح بحبه، نعم تركتني في صحبة "عزيز"، لكني لم أتعلم منه، حاولَ معي كثيرًا، لو اتبعت نصائحه ربما كانت ستعرف أن هناك نوحًا يحبها، ويسهر الليل يكتب قصائد في حبها لا يسمعها إلا "عزيز"

أتذكر الآن قصيدة كتبتها ذات ليلة شتائية:

"مفروشًا بالورد، مُحاطًا بالورد، جدران مكسوَّة بروائح الورد، وسماء بلون الربيع، تَفحُّ عطرًا، وتدفعُ عبقها صوب الأنوف، هكذا طريقي إليكِ،..... من قال إنَّ طُرق العشاق وعرةٌ، من توهمها مرصوفة بالشوكِ؟!

https://jadidpdf.com

حكايات غير منسية، حكايات ممتدة بلا نهاية، مطوية في قلبٍ توسَّد صورة حبيبته، ونام على إيقاع نغمات صوتها، أعطني يدكِ كي نطير صوب سمائنا، سماء لا تخص سوى العاشقين، أنا وأنتِ والسماء بقمرها ونجومها وكواكبها ومجراتها، بسحابها المملوء بحبات المطر، حبة في شكل قلب، حبة في شكل ثمرة تفاح من الذي تحبينه، وحبة تشبهك، هي حبة لؤلؤ، بيضاء بلون الحليب، لون وجهك، ممزوجة بعسل عينيك الذائب، مظللة بأهدابها الوارفة.

كموسيقى قادمة من ثقب في الكون يسكب السحر، مسافرة عبر ذرات الهواء الذي يخف كلما أطلت سيرتك وأنا أكتب عنك، متمايلة وهي منبعثة من ركن في حجرتي التي استقبلت طيفك الزائر كضيف خفيف، رفرفت أجنحة خيالي محتفية بك، وحطت روحك بكل هدوئها هنا، وهنا كنت أنا وقلمي على موعد معكِ.

تدخلني موسيقاكِ، تتسرب في شراييني، تسري في خلايا دمي، فأعزفك كلماتٍ وألحانًا.

كنا كمراهقين ننتظر اكتمال القمر، لكي ننظر إليه في الوقت نفسه، وإذا كان القمر مُحاقًا اكتمل في قلوبنا."

***

أعتقد أن "أسماء" كانت تدري أن نقوش المعبد وجدرانه ودهاليزه،

https://jadidpdf.com

حتى السقف المحروق الذي قال لي عم "نجاتي": إن أعداء الفراعنة أحرقوه ولم أصدقه، السقف هذا كان يشبه حياتي بدونها، أو كان يشبه قلبي الذي احترق وأنا أتلهف عليها، هكذا كتبت في قصيدة مُشبها نفسي وحالي، كتبتها أثناء جلوسي بالساعات في المعبد، وعم نجاتي غافل عني، لم أجد إلا "عزيز" لأُسمعه القصيدة ولم أجد منه إلا ضحكته الساخرة، لو وجدت يا أبي القصيدة أعطها لابنتها، أنت نسيت أن تخبرني اسمها، اسأل لي عن اسم البنت الصغيرة، تقول إنك تراها وهي ذاهبة للمدرسة و"أسماء" توصلها، حقا يا أبي أم أنك تُسليني بحكايات خرافية؟ وأسماء أصلا سافرت، أم أنها عادت؟! أنا في حيرة على حيرتي، لا تعطها القصيدة فقط، اجمع أشيائي كلها وأعطها لها، لن يغضب زوجها ولا هي، ما الذي يخشونه من ميت مات وشبع موتًا، ولا يعرف عنها إلا الحكايات التي ترويها أنتَ عنها، أخبرها أيضا أنك تؤنسني في قبري بالحكي عنها، ربما تأتي يوما وتزورني، هل ستقطع الطريق الطويل لتأتي إلى الواحة الجديدة، أكيد ستكون هناك عربات توصل الناس إلى هنا، وستقول لي: إن الصحراء ستتحول إلى واحة كبيرة، كبيرة جدا أكبر من قريتنا المحدوفة في الجبل ستسميها "واحة نوح".

نَفسي الآن لا تصبو لشيء إلا النجاة من أنياب الذئبة، بعين الأم التي تشعر بجوع صغارها تنظر إليَّ وإلى الذئاب الصغيرة نظرة تنبئهم

https://jadidpdf.com

بالاطمئنان أن الصحراء تقدم هداياها دائما ولا تبخل على بطونهم وتتركهم يتضورون جوعًا، أنا أيضا أنظر إلى صغار الذئاب الجائعة، من أين ستأتي أمهم بالطعام؟ أُشفق عليهم، لكني لا أحب الموت بهذه الطريقة، أتكون نهاية حياتي القصيرة بهذا الشكل، أتذكر أمي وخوفها عليَّ، غريزة الأمومة واحدة في كل الكائنات، فلماذا أغضب من هذه الذئبة؟

أعطيتها ظهري وهبطت، انتظرتُ أن تتبعني، لكنها لم تأتِ، ولم أنظر خلفي، كان الخوف قد انمحى من قلبي، وسكنتْ نفسي لما سلمت بحق هذه الأم في المحافظة على حياة أولادها حتى ولو على حساب حياتي، سرت مبتعدًا عن الصخور التي أصبحت ورائي الآن ووصلت إلى المكان الذي رمتني فيه العاصفة، وعزمت السير على الرجوع إلى خيمتي، أسرعت في سيري وكنت لا أحمل شيئا على ظهري فازدادت سرعتي، وصلت للخيمة والنجوم تنبت في صفحة السماء وجدت الخيمة قد تكوَّمت فوقها الرمال، وانحنت حتى افترشت الأرض، بذلت جهدا كي أعيدها كما كانت وأدق الأوتاد وأثبتها، نظفتها جيدا ثم سقطتُ على الأرض من الجوع والتعب، التقطت تمرتين وجدتهما معفرتين بالرمل، دعكتهما في ملابسي، وأكلتهما، وأنا أبحث عن أيَّ شيء آخر آكله، منذ أكلت اليمامة ولم يدخل في جوفي شيء، بحثت في "البقجة" وجدت بضع كِسرات من الخبز، أخذت في قضمهما دون أن أبللهما كعادتي

https://jadidpdf.com

بالماء، الماء من حولي يملأ المكان حتى الحطب مبتل فكيف يمكنني أن أشعل النار فيها؟، قطع الخشب مغمورة بالرمل نفضته من عليها، فوجدت الماء ملتصق به، أطلقَ ذئبٌ صرخة في الفضاء، شق بها ثباتي وأنا أبحث عن النار،"الآن تغيبين أيتها النار ولا يمكنني إحضارك، سأهلك بدونك"، حاولت إشعال النار في الخشب لكن دون جدوى، كانت محاولة فاشلة، تلتها محاولات تجاوبت مع صرخات الذئب، سكان الصحراء هنا جائعون، لابد أن يهلك أحدنا ليحيا الآخر، بدأ الذئب يقترب عواؤه، كان لا يعوي بل يصرخ من الجوع، الكائنات كلها راقدة ومختبئة من أثر المطر، فمن أين سيأتي بطعامه؟، لما أوشك أن يجري نحو الخيمة، أخرجت ملابسي، وبدأت في إشعالها، نظرت خلفي فوجدته في طريقه إليَّ، لوحْتُ بالنار الماسكة في الثوب فجرى، كانت النار تسعى بسرعة في الثوب، ابتعد الذئب ورحت كالمجنون، أبحث عن شيء أشعله وإلا هلكت، جاء الذئب ومعه آخر وأخذا في الصراخ، أخرجت ثوبا آخر وأشعلته، ابتعدا ثم عادا ومعهما اثنان آخران، النار لا تستغرق إلا دقائق يحترق بعدها الثوب ويتحول لرماد يسقط على يديَّ، الثوب الأخير كان فرصتي النهائية للنجاة من أنياب الذئاب الأربعة، بعدها كان بيني وبين الموت إشعال "البقجة" نفسها، أطلقت القداحة لتريحيني منها وتؤخر الميعاد بضع دقائق، استمرت النار فيها أكثر من الملابس، نظرت للخيمة وتذكرت الخيمة التي أشعلتها وأنا أطهو

https://jadidpdf.com

اليمامة، الخيمة تشر ماء ولا تصلح لتُوقد فيها النار، اخترت جانبا منها جافا وبدأت بالتمزيق بقوة متشبثًا بالحياة، كنت كالغريق، يمد يده ليلتقط أي شيء حتى ولو كان الموج نفسه الذي سيلتهمه بين أحضانه، زخت عيني دمعا حارا وحدثت نفسي حديث تعس تباشره أحزانه كل ليلة "أتخاف الموت يا "نوح"؟" والتمع ناب الذئب وشع بريقه عاكسا ضوء النار التي ألوحها في وجهه، كان أشدهم جرأة، كلهم تراجعوا إلا هذا اللعين الذي يعرف بحنكة ذئاب الصحراء أن النار التي تسعى في القماش لن تستمر طويلا وستنتهي، لماذا تخاف الذئاب النار رغم قسوتها وضراوتها؟ ألسنة النار الرفيعة لن تؤذيهم حتى يفروا منها كالخراف، بدأت أقطع أجزاء جافة من الخيمة وألقمها النار التي تتراقص في قماش "البقجة"، الآن ليس عندي "بقجة"، ولن أحتاج لها كي أحفظ فيها ملابسي، حتى الخيمة ها أنا أمزقها برغبتي، سأموت بدونها من البرد بالليل أو من الشمس بالنهار، هذا إن رأيت نور النهار مرة أخرى. لم يكن أمامي إلا أن أدافع عن نفسي بيدي، قلعت وتد الخيمة وفككت الأربطة منه، انهارت الخيمة وخلَّصت الوتد الحديد، النار في آخر جذوة لها، أنا الآن في مواجهة الذئب، لسان صغير أخذ يخفت حتى خبا تماما، اقترب الذئب وشهر أنيابه الحادة وشهرت أنا الوتد، كان جريئا ولم يضع وقته، قفز نحوي، وفي طريقه إليَّ، رأيت على ضوء الدخان أظافره وأنيابه تتوجه صوب

https://jadidpdf.com

جسدي، طوَّحت الوتد بكل قوتي، فاصطدم بجانب رأسه فطفر الدم من أذنه وعوى عواء المودِّع، جريت نحو البئر، وأنا أسمع وقع أقدام الذئاب تجري نحو الخيمة، الظلام طمس كل شيء، نزلت في البئر متعلقا بحبل الدلو ووضعت قدمي على النتوءات البارزة كيلا أسقط، وتجمع الذئاب حول الذئب الجريح، وكنت أسمع أنينه وتوجعه، وعواء إخوته عليه، وبقيت على حالي حتى طلوع الشمس ورحيل الذئاب تاركين صديقهم ينزف من أذنه الدم.

مع أول خيط من النهار الجديد، خرجت وأنا أكاد أموت من الإعياء، بقيت الليل كله معلقا في حافة البئر، لو ارتخت أعصابي لسقطت في البئر ولو خرجت لنهشتني الذئاب الجائعة، ارتميت على الرمال ملتصقا بالأرض، الشمس تلقي بأشعتها الصفراء على وجهي، نمت ولم تؤذني حرارتها، كانت واهنة لركض بعض السحب في السماء، لما فتحت عيني وجدت الكون كله مصبوغا باللون الأصفر؛ أشعة الشمس، والرمال حتى الأفق الممتد، اللون الأصفر لون الذبول ورأيت أن زهرة عمري تذبل، وشمعة حياتي تنطفئ، كيف سأبقى هنا بلا نار تحميني ولا طعام؟، ظللت على حالي حتى قرب الظهر، بعدها نصبت ظهري وملأت قربة جلدية كانت بجوار الخيمة عندما جئت إلى هنا، نظفتها وملأتها بالماء من البئر، واتخذت طريقا ثالثةً غير الطريقين اللذين قطعتهما في اليومين السابقين، سرت مدة ساعتين، ولأول مرة أقابل

https://jadidpdf.com

إنسانا منذ حطتْ قدَميّ رمال الصحراء، تهللتُ لما رأيته، نزل عن جمله وسألني ما الذي أتى بي إلى هنا؟ قلت له أبحث عن الشجرة التي تطلقون عليها "بنزين الصحراء"، أردفني على ناقته، وأوصلني إلى مكان منصوبة فيه خيمة كبيرة، مفروشة أرضيتها بكليم مصنوع من صوف الشياه المجزوزة، أحضر لي طعاما وجاء رجل يلبس جلبابا أزرق ورحب بي هو أيضا، كنت أشعر بالضيق، توقعت أن يسألني أحدهم عن سبب إقامتي في الصحراء، بالفعل بعد أن تناولنا الطعام، قلت له اعتبرني من المتصوفين الذين يهيمون في الصحراء، ويزهدون الحياة، قال لي لا تبدو عليك حياة التصوف، أنت مازلتَ شابًا، وعيناك عينا عاشق، رد زميله، المتصوف والعاشق كلاهما يعانيانِ، أعجبتني طريقة كلاهما وبدا أنهما على قدر من رجاحة العقل، الصحراء مدرسة تعلم أبناءها الحصافة والذكاء، سألتهم عن إقامتهم، قالا لي أنهما مرافقان لبعثة قادمة للتفتيش عن الآثار، معهما أشخاص آخرون لكنهما ابتعدا عنهم يجوبان الصحراء للصيد وسوف يعودان ليلا، قال أحدهم أنه يلزمني جمل في هذه الصحراء، وسلاح أحمي به نفسي، ابتسمت متعجبا، وقلت له لا حاجة لي بسلاح، أنا لا أخاف الموت، ثم تذكرت ليلة أمس وقد بِتُّ ليلتي معلقا داخل البئر، لو كنت لا أخاف الموت لواجهت الذئاب، الحياة غريبة رغم قسوتها إلا أننا نتشبث بأهدابها حتى الرمق الأخير.

https://jadidpdf.com

أردفني أحدهما على جمل وركب الآخر الجمل الثاني، سرنا حوالي ساعة حتى بدت الشجرة التي أطلبها ناخ الجمل وتهلل وجهي لما رأيت الشجرة، قاما بتشذيب فروعها ووضعاها في جِوال، خطر في بالي لما قام الوُد بيننا أن أسألهم عن الأستاذ "صبري"، أخبرتهم باسمه كاملا، نفيا معرفتهما به وقالا إنهما مجرد مرافقين لبعثة التفتيش التي أغلبها من الأجانب وقليل من المصريين، كنت أتمنى أن يكون الأستاذ "صبري" ضمن بعثة التفتيش، حكى لي أنه شارك أحيانا في تلك البعثات حيث كان يُكلف بكتابة التقريرات ثم يرسلها لفرع الهيئة الخاصة بآثار المنطقة، لما أنكر الرجلان معرفتهما به تأكد لي أنني لن أراه مرة أخرى، كان هذا هو الخيط الوحيد الذي يمكن أن يوصلني إليه، عند نقطة معينة تركني الرجلان وتركا معي أحد الجملين وجوالا كبيرا مملوء بفروع الشجرة التي هذباها معًا، وجِراب به "زوَّادة" تكفيني شهرا مع قلة طعامي، أعطانني أيضًا جالونًا مملوءًا بالماء وملفوفا بخيش كثيف حتى تظل المياه باردة دائمًا، كانت هذه إحدى منح الصحراء، أول منحة وربما هي قبل الأخيرة التي أنتظرها، وأسعى لها قبل أن أدفن في قلب هذه الصحراء، وتنشأ من حولي واحة كبيرة، أستظل بظلالها وأنا في قبري، شكرت الرجلين، سارا بعيدًا عني متوجهين لمكان إقامة فريق البعثة، نظرت إليهما وهما يبتعدانِ وقلت لنفسي هذان الرجلان منحاني الحياة في الصحراء دون أن أعرف

https://jadidpdf.com

اسمهما أو يعرفا اسمي، في الطريق تذكرت السراب الذي لم أره منذ قدمت إلى الصحراء، أنا لم أشتهِ شيئًا، ما جئت إلى هُنا للاشتهاء، جئت لأتخلص منه، لم أكن يومًا مقامرًا ولم يعنني الربح أو الخسارة، تركت كل شيء وجئت حاملا "نوح" داخلي وربما أعود بدونه، أتركه هنا تائها ضالا يطارد الذئاب ليلا، وبالنهار يجلب ما يطردها به، كأن قضيته كلها الذئاب.

رجعت لخيمتي مملوءًا بالأمل، قطعت المسافة في وقت قصير ولم أتعب، أراحني كثيرا هذا الجمل، وأنا أنزل من عليه قبلته شاكرًا، وأخذت أربت عليه في حنان وأحببته كثيرا، وأنا أفعل ذلك أحسست أني أحب الحياة، لولا هذا الجمل لأصبحتُ في عداد الهالكين، بعدها نفضت عن قلبي هذا التفكير وقلت إن هذا الجمل سيكون أنيسي في الصحراء.

بالليل أشعلت ركية النار وبدت متوهجة، سلاحي الذي سيحميني وبجواري الجمل ناخًا يجتر طعامًا فيصدر صوتا كأنه الموسيقى، ذكرني بالراديو الذي جلبته معي، أخذت في البحث عنه كان مدفونا في الرمال، نظفته جيدا، وفوجئت أنه ما يزال يعمل، أدرت المؤشر حتى استقر على محطة تذيع قرآنا لشيخ غير مصري، نظرت للسماء فوجدت هلال القمر بدأ ينتفخ كقربة، والسماء رائقة كما لم تكن من قبل حتى النجوم مشعة تنظر لي، بدوت سعيدا وكانت هذه الليلة أسعد

https://jadidpdf.com

لياليَّ منذ جئت إلى هنا، وقضيت الليل كله في صحبة صديقي الجمل، وصوت الراديو والسماء التي تنظر لي بكامل زيتنها، فتحت أحد المخطوطات وأخذت أقرأ فيه حتى غلبني النوم فنمت وصحوت على ضوء النهار، شممت رياح ملابسي المتسخة وتذكرت أنه لا يوجد لديَّ أي ملابس، وعليَّ غسل ثوبي هذا، تعريت تماما واتجهت للبئر، ملأت الدلو ووضعت فيه ثوبي وبدأت في الدعك، ثم علقت ثيابي على خشبة الدلو، لما رجعت إلى الخيمة التي أعدت إصلاحها بالأمس أول ما رجعت، كانت مؤخرتي العارية مملوءة بالتراب، نظرت لنفسي في غطاء إحدى الصفائح الصغيرة المملوءة بالجبن، فوجدت وجهي قد ازداد سمرة، وجسدي نحف كثيرا، أمسكت الجالون ورحت أصب على نفسي الماء، وأدعك بليف النخيل جسدي الملطخ بالجلخ الذي كوَّنه تراب الصحراء مع العرق، بدا جسدي لامعا تحت الشمس، ذهبت ناحية البئر وأخذت أملأ الدلو وأصبه ما فيه من ماء على جسدي وبالليف المخلل بالرمل واصلت دعك جسدي، وأعدت صب الماء مرارا، شعرت بسعادة كبيرة وأنا أؤدي هذا الطقس وتذكرت كيف كانت أمي تُجلسني في "طست" كبير وبمثل هذه الليفة تظل تدعك جسدي المملوء بالتراب والطين من اللعب في الشارع طوال النهار، كان تُسخن الماء حتى في الصيف وتنظفني جيدا، وكنت أشعر بالراحة والسعادة بعد هذا الطقس، الآن أبدو كآدم يوم أن نزل من الجنة عاري الجسد، أتمنى لو أن روحي حرة عارية كجسدي لجُبت الصحراء شرقا وغربا، وتخلصت من عوالقي،

https://jadidpdf.com

دخلت الخيمة وانتظرت حتى جفاف ثوبي لحظات وخرجت ارتديته وهو ما يزال مبللا بالماء، وجلست في الخيمة أخرجت قطعة جبن وثمرة صغيرة من البصل، وبعض اللقيمات الجافة، أكلت وشربت كوبا من الشاي، وشعرت أني إنسان آخر، قربت الماء للجمل، عبَّ حتى ارتوى، الصحراء بدأت تدب فيها الحياة، هل ستصير واحة كما أحب؟ هل أدرك هذه اللحظة قبل موتي، أم أنتظرها وأنا بين أحضانه؟ الآن سأعد كل شيء، سأحفر قبرا بجوار الصخرة، وأبدأ بزرع الواحة، لأرى اللون الأخضر لأول مرة قبل موتي، لابد أن يتجاور الموت مع الحياة، كي تتخفف من أحزانك يا "نوح"، هكذا حدثت نفسي، وأخذت في العمل بجد، أنفذ ما قرأته في المخطوط حرفا بحرف، ثم أتركه لمن سيأتي بعدي ليُكمل المسيرة، المكتوبة على المختارين لهذه المهمة، ها أنا سعيد لأول مرة، سعادة تجب أحزان عمري الفائت.

https://jadidpdf.com

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

https://jadidpdf.com

رسالة إلى أبي

أبي العزيز أنا الآن مُرتاح هنا، نعم وحدي في مقبرة نائية بعيدة عن العمار والناس، في عمقِ صحراءَ تُصفِّر فيها الرياح نهارا، وتعوي فيها الذئاب ليلا، لكني والله مرتاح، انتهت أحزاني تمامًا، الموت يا أبي ماحق يمحو كل شيء، حتى الحزن يتفتت تحت أقدامه، وسَّدتني الترابَ بيديك ورفضت أن تكون هناك يد غير يدك هي آخر من يربت على جسدي، لم تقبل أن يدفنني عم "أبو ضيف" ونهرته، هو الذي قضى عمره يُلَحِّد الموتى ويكشف عن وجوههم ويوليها ناحية القِبلة، طبعت قُبلة على جبيني، ووضعتَ طوبة تحت رأسي، وسقطتْ دمعة فدخلت من بين شفتي إلى فمي، لم أحس بملوحة دمعك، ماتت حاسة التذوق عندي، واستوت كل الأشياء لديَّ، ضمتني يداك، وسحبك عمي "مِصدَّق" من جلبابك وأخرجك من القبر، تولى عم "أبو ضيف" إغلاق القبر بالطين المخلل بالطوب الأخضر، قبر جديد يستقبل وافد

https://jadidpdf.com

جديد.

يا أبي كل ما حدث لي في حياتي كان سببه وقوعي في غرام التاريخ، أُقلب في صفحات الكتب وتسكنني الحوادث التي أقرأ عنها، تاريخنا حزين يا أبي، في أوج الانتصارات كانت تسحُّ الأحزان وتهطلُ الدموع كماء المطر مقتلعة كل فرحة، كل ما حدث لي في حياتي كان من سطوة هذه الكتب، لم أُقدس النار، ولم أعبدها كما حكوا لك، فقط كنت متأثرا بما أقرأه، حتى "أسماء" ربما لم أحبها، لا لا، أنا أحببتها فعلا لكن ربما هي لم تكن موجودة، أنا أحببت "قطر الندى ابنة خمارويه"، هل وقعتُ في عشقها فتخيلت أن هناك بنتًا اسمها "أسماء" موجودة في قريتنا؟ وبنى خيالي صرحًا من الحب، ربما يا أبي، أكرر كلمة ربما كثيرا؛ لأني الآن وسط بياض الموت أرى الحقائق لامعة بلا أكاذيب ولا مساحيق، وتتساوى عندي أشياء كثيرة، ليس شرطا أن تكون قد حدثت بالفعل، المهم أنها تكون قد تركت أثرا فيَّ عندما كنت في الدنيا.

سيسعدني لو جاء شخص وكتب أحزاني، سيكون عزائي الوحيد أن أرحل وتخلد حياتي، من يَجْسر على فعل ذلك؟ أوراقي في البيت، وأحزاني مدفونة في قلبي والمخطوطات بجواري، حتى غرفتك هُدمت وفيها بعض القصاصات، امنحني راحة أخرى، أمنية ميت، لم تُحقق أحلامه في الدنيا، ومازال موهومًا بتحقق الأماني، تعال إلى الصحراء، وبجوار قبري أنشئ ثلاثةَ بيوت؛ بيتًا تسكن فيه أنت وأمي، وبيتين آخرين لأختيَّ

https://jadidpdf.com

وزوجيهما وأبنائهما، لا تنس عمي "مِصدَّق" انتظرا قدوم "عزيز"، ربما يأتي، وابدأ في غرس أشجار الواحة التي تحدثنا عنها، سمِّها كما اتفقنا "واحة نوح" ودعك من ميراث الحزن الثقيل، لا تُسمِّها يا أبي كما قلت لي "أحزان نوح".

تمت

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

جديد بدف®
jadidpdf.com

المؤلف في سطور

أحمد جاد الكريم

كاتب وروائي مصري

من مواليد ١٩٨٥

صدرت له رواية ليالي السيد

حصل على جائزة ساقية الصاوي عن رواية ليالي السيد عام ٢٠١٤،
وجائزة المجلس الأعلى للثقافة عن رواية أحزان نوح عام ٢٠١٤.

جديد بدف®
jadidpdf.com

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة والحصرية
بحجم خفيف جدا على مكتبة جديد بدف
https://jadidpdf.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مكتبة جديد بدف
يرجى زيارة الموقع الإلكتروني
https://jadidpdf.com

جديد بدف®
jadidpdf.com